سيرة

جبل الرمل

رندا شعث

t.me/qurssan

جبل الرمل

رندا شعث

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © رندا شعث، ٢٠٢٠

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

شعث، رندا.

جبل الرمل / رندا شعث - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٠.

٢٠٨ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣١٨٢

١- رندا شعث - المذكرات

أ- العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٥٩٤٤ / ٢٠١٩

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: رندا شعث

تنفيذ الغلاف: أحمد عاطف محاهد

t.me/qurssan

إهداء

إلى فاطمة، أم صفاء، جدتي.

لم أبكِ. ودعتُ خالاتي في الشرفة، وقفت أمام النخلة الأخيرة، «عيشة»، عند البوابة البحرية، ومسحت جذعها الخشن الصلب بيديّ.

t.me/qurssan

ننطلق من بيتنا الصغير في جاردن سيتي مبكرًا. نتوقف للراحة وأكل الفطير المشلتت عند «برج المنوفية» قبل أن ننطلق في رحلتنا إلى المندرة، رحلة الأعياد والعُطَل الرسمية وإجازة الصيف. بالنسبة إلى الطفلة ذات الجديلتين، المندرة هي الإسكندرية كلها، هي البحر والرمل، وربما هي مرادف للفرح نفسه. نتأفف من الوقوف، حيث سنتأخر عن حلم الوصول إلى البيت الكبير. نصل إلى المدينة ونتوقف مرة ثانية عند «بقال عينو» في منطقة رشدي لشراء الجبن والفستق الذي تحبه تيتة فاطمة. نصل إلى الكورنيش لنرى البحر أخيرًا، مع أنه الطريق الأطول. «بيت الصفا» في زيزينيا، «ملهى الضفدعة» في ستانلي، ميامي، سيدي بشر العصافرة، البحر، والبحر. نتنافس على الشباكين أنا وأخواي.

نصل إلى المندرة. تتوقف العربة أسفل الجبل الرملي، بعد الانعطاف يمينًا من شارع أبو قير عند جامع سيدي كمال. نرى رأس النخلة الزغلول. أسباطها محملة وجاهزة للتنزيل. البيت في قمة الجبل. بعد اعتلاء السلالم الأولى يظهر القوس الحجري محتضنًا «الفراندة» المستديرة، تحيطها الستارة الداكرون

t.me/qurssan

المزمومة لآخرها بشرائط ملونة من بواقي الأقمشة. الكراسي القش نَسَلث واستُبدلت بها الكراسي البلاستيك. السلمة الأخيرة مكسورة ـ ربما من أيام جدي. منها فقط تستطيع رؤية الكنبة الإسطنبولي. جدتي فاطمة متربعة فوقها، تحمل صينية أرز كبيرة، تنقيه. نتسابق من يحظى بالحضن الأول.

يناولها أبي كيس الفستق. تمسك به وتتولى التوزيع. تُدخل يدها الصغيرة وتكبش حبات توزعها على أفراد العائلة، ثم تخبئ الكيس حتى تنفرد به بعد نومنا. كلنا نعرف أين تخبئه، في دولاب غرفتها البحرية، وراء المرآة، بجانب العلبة القطيفة حيث كنزها: الخاتم والسلسلة الذهب.

أنام معها في الغرفة البحرية ذات الشباكين والأرضية الخشبية. الأثاث باقٍ من زفافها: خزانة كبيرة ذات درفات ثلاث بمرايا طويلة داخل الأبواب، تسريحة بأدراج وصندوق زجاجي ومرآة ورف صغير لأدوات الزينة، طاولتان صغيرتان بجانب سريرين متوسطَي الحجم. أشارك أحيانًا خالتي حسناء في النوم على أحدهما في أيام الشتاء، فنلعب معًا لعبة الدغدغة حتى تضيع لسعة البرد الأولى تحت اللحاف. جدي حسين، الذي لم أعرفه، أصر على شراء سريرَين على الرغم من اعتراض العائلتين: كان يرتاح للنوم وحده. حين نضجتُ أفشَت جدتي بخجل أنه كان يزورها في سريرها، ثم يعود للنوم وحده في سريره.

t.me/qurssan

٢

الشرفة الصغيرة فيها منشر غسيل وكنبة تُطل على بيت الجيران. بوابة هذا البيت في شارع الجميعي قرب مدخل جاردن سيتي من شارع «الليدي كرومر»، ومن الجهة الأخرى فيلّا مهجورة وشجرة مانجة. أجلس أنا ـ طفلة في الرابعة ـ مع جليستي التي تكبرني بأعوام قليلة، بينما تنشغل أمي بإرضاع المولود الجديد، أخي علي. لا تنسى قبلها أن تحشو لي ساندويتشات اللانشون والحلاوة الطحينية. لا أحب الحلاوة؛ لا أحب الأكل عمومًا. تجبرني أمي على البقاء على الكنبة حتى أنتهي من عشائي. أبكي وأرجو جليستي إنقاذي. تأكل الساندويتشات بدلًا مني. أهلل وأصفق بينما تؤكد هي لأمي أنني أكلتها كلها.

أبتسم للجارة الشابة. بين شباكها وشرفتنا مسافة ثلاث أذرع، لا تكفي للتلامس ولكنها كافية لتصل إليّ الحلوى التي ترميها لي عبرها. أحب «لعبة الشرفة» كثيرًا. ألتقط الحلوى بمهارة وآكلها بسرعة.

تسمح لي أمي بأن أنزل سلالم الأدوار الثلاثة ـ بمعية عم عبد الحميد، البواب النوبي ذي الشارب الطويل، والعمة البيضاء الكبيرة ـ ومنها إلى مرآب السيارات المظلم والضخم. للجراج مدخل من داخل العمارة عبر حديقة صغيرة تفتح على شارع

t.me/qurssan

حوض اللبن. تجلس سيدة بثوب مزركش تبيع البيض البلدي في سلةٍ من خوص. أناولها القروش التي أعطتني إياها أمي وأحمل البيض في صحن.

يـوم الجمعـة حفلـة صـباحية للأطفـال فـي سـينما «متـرو». يصطحبني أبـي إليـها، محـاولًا تخفـيف حمـل أمـي مع الرضيع. نـدخل فـيلم «صـوت الموسيقى». بعد الفيلم، تعلن السينما عن جـائزة سـحب علـى أرقـام التـذاكر، ويفـوز رقمـي. أصعد سلالم مسـرح السـينما، متعثرة فـي خجلي. أعـود لأبي بعلبة «رابسو». يتمشى معي إلى الكورنيش القريب. أعتلي أحد مرابط المراكب الحديد السوداء المنتشرة وأراقب جري النهر.

يـومًا أخـذني إلـى مـدينة الملاهـي. فـي أول لعبـة وقـع حـادث وانكسرت الأرجوحة الكبيرة. ارتطم رأسي بلوح خشبي ممتلئ بالمسامير. أصيب أبي بالذعر من نافورة الدم التي غطت وجهي الصغير، فحملني وركض باحثًا عن مركز إسعاف. لم يضايقني سوى أنني كنت أريد الذهاب إلى الحمام. أبي يدور بي يسأل عن أقـرب مسـتوصف وأنـا أبكـي لأنـي محصورة. أخيرًا توقف عند شجرة وسمح لي بقضاء حاجتي خلفها. احتاج رأسي إلى أربع غرز. أعجبني الشريط الملفوف حوله. أضفت على جانبه ريشة عصفور، وادعيت لأيام أنني هندية حمراء. بقيت ندبة صغيرة أعلى جبيني حتى اليوم.

أسـمع والـديَّ يتهامسـان متحدثَين عني، أفهم أنني كبرت على «حضانة الحديقة» في تقاطع عائشة التيمورية وشارع الطلمبات، وحان وقت الانتقال إلى المدرسة. صباح اليوم التالي يمسكان بيـديَّ . أبي بيـد وأمي بيـد. نتجه إلى الكورنيش، نمرُّ بالمدرسة الكبـيرة فـي شـارعنا فنتـوقف ليطرحـا سـؤالًا على رجل جالس بـالباب. أنبـهرُ بتمثـالٍ مـرمريٍّ بـديع، محـاط بالضـوء، لأمٍّ حنون تحمـل طفـلًا، يحتـل المدخل. لسبب ما، لا تعجب والديَّ إجابة الرجل. يحاولان شدي مجددًا باتجاه الكورنيش. أبكي وأتمسك بالمدرسة التي فيها تمثال منوَّر. أخفق في إقناعهما.

t.me/qurssan

يُلحقاني بمدرسة في الجيزة يعتلي برجها ديك يتحرك باتجاه الريح. في فصل أطفال الحضانة صرخت وبكيت حين أجلسوني في المنتصف بين طفلتين. اكتشفت وقتها أني أعاني من رهاب الاحتجاز. ظللت أصرخ حتى نقلتني المُدرسة إلى التختة في الصف الأول، وحدي.

يعود بي باص صغير، يُكلَّف عبد الحميد ذو العمة البيضاء بمهمة جديدة: توصيلي إلى شقتنا في الدور الثاني. يمر شهر قبل أن تسمح لي أمي باعتلاء السلالم وحدي، ولكنها تنسى إبلاغ عم عبد الحميد. تصل الحافلة، يمسك هو بيدي، أحاول إفهامه أنني كبرت وأنني أستطيع الصعود وحدي، يأبى، أملأ أدوار العمارة الخمسة صراخًا دفاعًا عن استقلالي.

يُبلغني والدي أنه سيذهب وأمي في مشوار قصير بعد أن أنام أنا وأخي. أحسُّ بباب البيت يُغلق برفق. علي يغطُّ في النوم. هل غبتُ في النوم أنا أيضًا؟ أسمع حفيف أقدام بجانبي في الظلام. أرتعب. أمدُّ يدي الصغيرة وألمسُ قماشًا، أبدأ في مناداة أمي بصوت مرتفع. أجد أبي بجانبي. أحكي له عن وجود حرامي. يضيء الغرفة ليؤكد لي خلوها منه. علي ما زال يغط في النوم. أؤكد أنني أمسكت به. يمسك أبي بستارة الشباك بجانب سريري:

. هذا ما أمسكتِ به.

أرتعش خوفًا. يحملني ويلف بي أرجاء الشقة الصغيرة لأتأكد من استتباب الأمن.

t.me/qurssan

٣

ولدتُ في أمريكا وسط عاصفة ثلجية، كان أبي يحضِّر رسالة الدكتوراه هناك. حكى أنه حين بدأ «طلْق» أمي، عجز هو عن إزالة الثلوج عن سيارته أو التحرك في أي اتجاه بأي وسيلة مواصلات. اضطر إلى طلب الشرطة كي يحمل أمي إلى المستشفى. كانت قد فقدت ماءها كله واضطروا إلى سحبي بالملاقط، ما أدى إلى التواء بسيط في عمودي الفقري سبَّب لي أوجاعًا في الظهر إلى اليوم.

عاد والدي من أمريكا في منتصف الستينيات، حاملًا شهادة دكتوراه في الاقتصاد، وطفلة في الثالثة والنصف تفهم العربية ولا تتحدثها، لكن لها مكانة الحفيدة الأولى في العائلتين (عائلة أمي المصرية وعائلة أبي الفلسطينية). مكثنا في بيت جدي وجدتي لأبي، علي وسميحة، أقل من عام في وابور المياه بالإسكندرية. حملت أمي سريعًا بأخي علي. بولادة أخي علي، وريث العرش وحامل اسم جدِّه، فقدتُ كل امتيازاتي كحفيدة أولى.

في بداية الصيف أسبوع الخِياطة؛ تقيم الخيَّاطة اليونانية أسبوعًا في البيت حتى تنتهي من فساتين الصيف لجدتي وعماتي. تجلس وراء الماكينة في موقع استراتيجي، أمام باب البلكونة في غرفة نوم جدي وجدتي. نظارتها سميكة. جدتي وعماتي مشغولات كلهن بالبروفة والفساتين الجديدة، وأمي منشغلة تمامًا بالوليد الجديد. لا أجد من يهتم باللعب معي فالجميع مشغولون بقصاصات القماش. فجأةً، ارتفع صوت لغط غاضب، الكل يتحرك حائمًا حول الماكينة، الخياطة منزعجة وتطلب الجيوب. يفتشن في كومة القصاصات واللعب على الأرض حيث جلستُ ألعب تحت أقدامهن. جدتي أمسكت بي:

t.me/qurssan

. وين وديتي الجيوب؟ هاتيهم يا عفريتة.

لم أفهم معنى الكلمة، علا صوت جدتي تؤنبني وتتهمني بإخفاء الجيوب. ظلّ الموقف متوترًا إلى أن أنقذني جدي علي. حملني وأخذني في نزهة طويلة خارج البيت.

جدتي سميحة تغني لي أهازيج طفولتها في لبنان: «زيت زيت يا حاجة لنطعمي رندا عجة»، و«كبيبة يا كبيبة إن شا الله تضلي طيبة». تدغدغني وهي تثني أصابعي وتخيرني بين «القرقة والصيصان». تحممني قبل النوم وتشجو موالًا طويلًا، حزينًا: «غريبة يا غريبة». تسكب الماء الدافئ على جسدي من طاسة فضية مزخرفة جاءت من الحجاز، وتردد كل ليلة سيرة بنت تاهت عن أهلها وصارت غريبة في البلاد.

تستلمني أمي بعد الحمام. أخاف من النوم في الظلام، تربكني صيحة «غارة طفوا النور». زجاج الشبابيك كله مغطى بورق أزرق داكن، تضع أمي نواسة داخل الكومودينو وتترك درفته مواربة.

مات جدي علي بعد شهور من فرحة ولادة ولي العهد. النكسة أكدت غربته: كان يحلم بالعودة إلى فلسطين.

t.me/qurssan

٤

في المندرة أصحو قبل الجميع، وأخرج من الباب البحري متجهة إلى جبل الرمل. أمارس هواية غرز قدميَّ وساقيَّ النحيلتين في رماله البيضاء الناعمة، التي تكون باردة صباحًا وملمسها طري «حنيِّن». أبقى فيها حتى تستيقظ أمي وأسمعها تسأل عن مكاني، فهي لا تسمح لي عادةً بالخروج إلى الجبل وحدي. أتجه نحو البيت الكبير عائدة بتمثيلية. أملأ الكوز الألومنيوم الذي أعطتني إياه جدتي بالرمل، أعود به ممتلئًا حتى آخره وأصيح: «لبن... لبن».

قبل المغرب، يصير الجبل ملعب الراكيت لخالاتي الأربع وأخوالي الثلاثة وأصحابهم من الحي. يُسمح للصغار أن يتربعوا أعلاه ويراقبوا المباريات، أو يبحثوا عن الكنز الذي يقال إنه مدفون في الرمل.

عندما كبرت قليلًا، سُمح لي باجتياز الباب البحري وحدي. صرت أذهب إلى بائع الجرائد على الكورنيش، وأعود بها لأمي. يوم الأحد كان يومًا خاصًا: أستيقظ أبكر من عادتي وأركض إلى الكورنيش قبل أن يصل بائع الجرائد، فلا تفوتني نسختي من مجلة «سمير».

كل يوم في إجازة الصيف الطويلة بعد الإفطار نسرع نحن الأحفاد إلى البحر بالمايوهات والشباشب (والعوامات لمن لا يعرف العوم)، نحجز شمسية للكبار ولا ننتظرهن. يلحقن بنا على

t.me/qurssan

مهل بالبشاكير والبرانس والساندويتشات التي تكفي بقية اليوم. نسبح وحدنا حتى البرميل المعدني الذي تحيط به الطحالب الخضراء، إلا لو كانت الراية حمراء أو سوداء، وقتها ننتظر أمي وخالاتي.

بعد نهار في البحر، نعبر الكورنيش ثم شارع الحرية، الذي أصبح اسمه «جمال عبد الناصر»، ويكون انتهى خطر السيارات. نمشي بين البيوت الصغيرة والكبائن الخشبية لنعود إلى جبل الرمل الأبيض، ومنه إلى بيت جدي عبر البوابة البحرية. ترشُّنا أمي بخرطوم الجنينة لتخلصنا من الماء المالح والرمال التي تخللت كل شبر منا وتشابكت حتى في شعرنا. يوم واحد في الأسبوع يأتي دور الوابور والحلة الكبيرة وحمامنا الساخن.

بعد الأكل نصل إلى أسخف فترة في اليوم؛ نوم بعد الظهر كان مقدَّسًا لأمي، تُجبرنا عليه لتقي نفسها ضجيجنا، تحرمنا من اللعب في الحديقة ساعةً تبدو لنا كالدهر، ولا تتركنا حتى تتأكد أننا نمنا فعلًا ولو مقهورين. بعد أن كبرنا قليلًا تخلت عن إصرارها على أن ننام، وتركتنا نقرأ المجلات في السرير. المهم ألا تسمع لنا صوتًا، ويا ويلنا إن سمعت شجارًا بيننا!

أخيرًا ننزل إلى الحديقة. يجتمع أطفال حارتنا وفتيانها: أولاد عم يحيى من الدور الثاني، وأولاد الحاج عبد الفتاح من البيت المجاور، وأولاد عمر مكرم من الفيلَّا الخلفية. نلعب في الجزء الرملي تحت شجرة التوت، في مساحة كبيرة تُغنينا عن النصف الآخر عند شجرة الكافور، وعن الجزء الخلفي حيث شجرة الزيتون والجوافة والنخلات المسماة على اسم كل خال وخالة.

يختار الأطفال كابتن كل فريق من الفتية الأكبر سنًّا، وكل منهما يختار بدوره أعضاء فريقه، فريق مصر وفريق سوريا. نلعب ألعابًا شتى. اللعبة المفضلة للجميع «كرة صلح» التي يفوز فيها أحد الفريقين بعد أن يصيب أعضاء الفريق الآخر بالكرة واحدًا واحدًا. كبرنا ولم نعد نلعب لعبتَي «التعلب فات» و«بريلا بريلا». كنت أكره «بريلا بريلا» لأنها تنتهي باختيار عريس لعروس. حين تبدأ

t.me/qurssan

الظلمة في الانتشار نختم اللعب بالاستغماية. في الحديقة مخابئ ومتاهات كثيرة، تأتينا خالتي رواء بساندويتشات العشاء بعد أن تفشل أمي في إقناعنا بأن نعود إلى البيت لتناولها. نهرب منها ونصيح: «خبي ديلك يا عصفور».

يحين وقت النوم. تحدِّده أمي وتصرُّ عليه وتُخرجنا من الجنة، على الرغم من أن بقية الأهالي يتركون أولادهم يسهرون. أبكي وأنا أطلب منها أن تسمح لي بمشاهدة فيلم السهرة، حين صار في بيت جدتي تلفزيون. ترفض أمي، بصرامتها المعهودة، وتنتظر حتى أغمض عينيَّ. تجتاحني رائحة لب البطيخ وهو يُحمَّص في المطبخ. تتعاطف خالاتي معي وينقلن التلفزيون ليكون قريبًا من باب غرفة نوم الأطفال. ينادين عليَّ سرًّا حين تخلد أمي إلى النوم أخيرًا، لنبكي ونضحك معًا على أفلام الأبيض والأسود.

t.me/qurssan

في منطقة جاردن سيتي كلها، وعلى بُعد شارعَين من بيتنا، تحديدًا في آخر شارع حوض اللبن وقبل شارع مستشفى «الليدي كرومر»، دكان واحد يبيع الحلويات، هو دكان أحمد عطية، يضيع فيه مصروفي الأسبوعي كله. في مواجهة دكان أحمد عطية محلان للبقالة صاحباهما من خليل فلسطين، تميزا بالجبن والزيتون، وبلهجة فلسطينية خليلية.

عندما لم يعد علي رضيعًا، صار طفلًا كتومًا ومسالمًا، لا يضيع كل مصروفه عند أحمد عطية، ويمضي وقتًا أطول مني بكثير عند أكل الحلوى، ويغيظني بعد أن أكون قد انتهيت منها. على الرغم من حرصه هذا، عاد مرةً إلى البيت في تأثر شديد. حكى لنا أنه رأى رجلًا يبكي في الشارع الطويل الملتوي بين مبنى دير «المير دو ديو» والمباني الإدارية للسفارة السعودية. كان بائع جرائد يحمل الورق المقوى فارغًا، ينظر إلى الأرض بحثًا عن شيء ما ويبكي. سأله علي عن مشكلته فأجابه البائع وسط دموعه أنه ضيع إيراد الجرائد. وما كان من علي إلا أن منحه مصروفه الأسبوعي. شاهد بابا وجارنا الرجل نفسه في الشارع نفسه يحكي القصة نفسها مرارًا بعد ذلك.

* * *

نقضي أيام رمضان في المندرة. تشترك العائلة كلها، صغيرها

t.me/qurssan

وكبيرها، في تحضير سفرة الإفطار، على صوت ابتهالات النقشبندي الآتية من الراديو في غرفة الطعام. لجدتي ثمانية أبناء وبنات: صفاء أمي، البكرية، ومن بعدها هناء، ثم زكاء، وأحمد وفاء، ومحمد بهاء، ورواء، ثم التوأم الذي لم يلحق جدي قبل وفاته، حسناء وحسين . الوحيد الذي لم ينضم إلى القافية لأنه سُمي على اسم أبيه الراحل. ووصل عدد أحفادها قبل رحيلها إلى واحد وعشرين حفيدًا.

شفشق قمر الدين بلونه البرتقالي يزين المائدة المغطاة بالمفرش البلاستيك ذي الورود الخضراء والحمراء. أثناء الأكل نستمع إلى المسلسل الإذاعي «سماح والليالي الملاح» من الراديو الخشبي الكبير المعلق على الحائط. بيت تيتة لم يعرف التلفزيون ولا سخان الماء إلا بعدها بسنوات.

قبل غسل المواعين نصطف جميعًا، نحن الأحفاد، خلف خالتي الصغرى حسناء، تؤمنا في صلاة العشاء. تحفِّظنا آية جديدة أو حديثًا كل يوم، وتشرح لنا حكمة الصيام. ثم نقف في المطبخ نسليها وهي تغسل المواعين. نخوض كل ليلة مسابقة في الغناء، يخسر الجميع مبكرًا وأبقى أنا وخالد إلى نهاية المسابقة. برع خالد، ابن خالتي هناء، في أداء أغاني أم كلثوم بصوته القوي، الموروث عن جده المقرئ الشيخ، وتميزتُ أنا بأغاني فيروز. وكنت أربح المسابقة دائمًا، لا لتميز صوتي، بل لأن خالتي تفضل أغاني فيروز.

تبدأ مغامرة الفوانيس بعد أذان العشاء مع حلول العتمة، في آخر الحديقة، تحت شجرة الزنزلخت الباسقة عند الباب القِبلي. ترافقنا خالتي رواء بعلبة كبريت لتضيء لنا شموع الفوانيس الصفيح ذات الزجاج الملون. تبدأ بشموع أولاد جيراننا: إجلال وإكرام وياسر أبناء الحاج فتحي، وصفاء وسحر بنتا الأستاذ عبد الفتاح. ثم تنتقل إلى شموع أطفال العائلة، وتبدأ بالأكبر سنًّا: أنا، ثم خالد وعمرو ابنَي خالتي هناء، ثم أخي علي. تلسع حرارة الشموع أيادينا قبل أن يبدأ الموكب الصغير بالتحرك في اتجاه محطة القطار. في أول منحنى على الشمال نبلغ بيت خال أمي،

t.me/qurssan

تركي، يسيل لعابنا في تخيل الحلوى التي ستقدمها لنا زوجته أم نادية.

تغوص أقدامنا الصغيرة في الرمال البيضاء الناعمة الممتدة تحت شريط القطار. تحاول حناجرنا الضعيفة كسر أصوات الصمت. نبدأ في النشيد:

حالو يا حالو

رمضان كريم يا حالو

حل الكيس وادينا بقشيش

لا نروح ما نجيش يا حالو

ونكرره مرارًا. تخفت أغنيتنا بسبب دوي صافرة القطار الآتي بالاتجاه المعاكس من أبو قير، يتلاشى صوتنا، وتعلو بعد مروره ريح صغيرة تثير الرمال وتطفئ عددًا كبيرًا من الشموع. تمر الزوبعة ويتصاعد بكاء سحر وعلي. أحاول أن أضيء شمعتيهما بشمعتي، فتنطفئ هي الأخرى. نكمل الرحلة بشمعتين مضيئتين فقط.

* * *

انتهينا من إبداعنا تماثيل الرمل المخلوط بالماء من خرطوم الحديقة، وزيناها بثمار شجرة الزنزلخت القصيرة النابتة تحت شباك المطبخ، وورود الجهنمية الحمراء التي قطفناها من فوق الباب القبلي. جلسنا في الرمل، وبخيال طفلة السابعة حكيت لباقي الأولاد قصة تفاصيلها مكتملة عن رجل وامرأة يُقبلان بعضهما بعضًا ويحملان حقائب سفر وأطفالًا معهما، رأيتهم أدنى الجبل. أعادت إجلال، ابنة الجيران، لأمي القصة التي حكيتها لهم، وحددت عني اسم عائلة من الجيران. اعتبرت أمي أني أذنبت ذنبًا رهيبًا وأنني كذبت، وأن عقابي سيكون عسيرًا، وسيأتي بعد أن أعترف بذنبي أمام جميع الأطراف وأقدم الاعتذار. كنا في إجازة نصف السنة، وكان الجو باردًا وممطرًا. حملتني أمي ليلًا إلى

t.me/qurssan

بيوت الجيران وسط الرياح، توقفني في بيت الشيخ يحيى فوق الكنبة في صالتهم الخارجية لأعترف بأن قصتي التي حكيتها لم تحدث وأني آسفة لكذبي، ومنه إلى بيت الأستاذ عبد الفتاح، حيث توقفني فوق طاولة الطعام الكبيرة وأنا أرتعش لأعترف بجرمي. حكمت أمي أن أقضي بقية الإجازة محرومة من اللعب في الحديقة، وأنني لن أغادر حتى غرفة نومنا.

لم أستطع النوم ليلتها من شدة الخوف وبسبب إحساسي بالذنب. في الليلة الثانية، أخذتني خالتاي رواء وحسناء لأنام معهما في السرير الكبير بالغرفة البحرية. أنام دائمًا في الجانب الخارجي. لا أذكر كيف أقنعت الجميع، كبارًا وصغارًا، أنني لن أنام أبدًا بجانب الحائط. لعبتا معي لعبة الزغزغة تحت اللحاف كي ندفئ الملايات الباردة وأقدامنا المثلجة، وفي اليوم الثالث طلبتا السماح من أمي لتعفو عني وأعود إلى اللعب في الحديقة.

t.me/qurssan

٦

أعدَّ جدي علي أبي منذ صغره لدور في تحرير فلسطين. انتُخب أبي رئيسًا لاتحاد الطلبة العرب وقت دراسته في أمريكا وانضم إلى حركة فتح. في أثناء ذلك تعرف على ياسر عرفات. بعد هزيمة ١٩٦٧، وفقدانه الأمل في تحقيق وعود «بيان ٣٠ مارس»، واقتناعه بأن تحرير فلسطين قد لا يمر بالعواصم العربية أولًا، قرر أبي بداية حياة جديدة: قدم استقالته من المعهد القومي للإدارة العليا، وترك مصر، وانضم إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

كنت في السادسة حين انتقلنا للسكن في لبنان. بقينا نقضي الإجازات الصيفية في الإسكندرية. آخر يوم كل إجازة قبل عودتنا إلى بيروت تتوتر جدتي. تحضِر برطمانات العسل من منحل خالتي زكاء، وعلب قرَص العجوة، والكعك والمربَّيات والكسكسي. صباح السفر يأتي الأخوال والخالات لتوديعنا. ينقلون حقائب السفر عبر الحديقة الكبيرة إلى السيارة المنتظرة عند الباب القبلي جهة السكة الحديد. الرمل يمنع السيارات من الوصول إلى البيت. قبيل رحيلنا تنهمك تيتة في كنس البيت الكبير بدلًا من أن تقضي الساعات الأخيرة معنا. لطالما عجبت لإصرارها، وإن حافظت أنا على التقليد: إما كنس البيت كله قبل سفر المسافرين، وإما الانتظار حتى وصولهم سالمين إلى وجهتهم. «ما ينفعش نكنس البيت وهمَّ في طريق السفر، فال وحش عليهم».

بعد رحيل أمي، حافظت تيتة على تقليد «تجهيز الزيارة» لي. لم أعد إلى بيتي مرة بعد رحلة المندرة إلا محمَّلة بمكحلتي مليئة بالكحل من صنعها، وكيس كبير فيه ذكر بط وزغاليل الحمام التي كانت تربيها في الحديقة الخلفية.

t.me/qurssan

٧

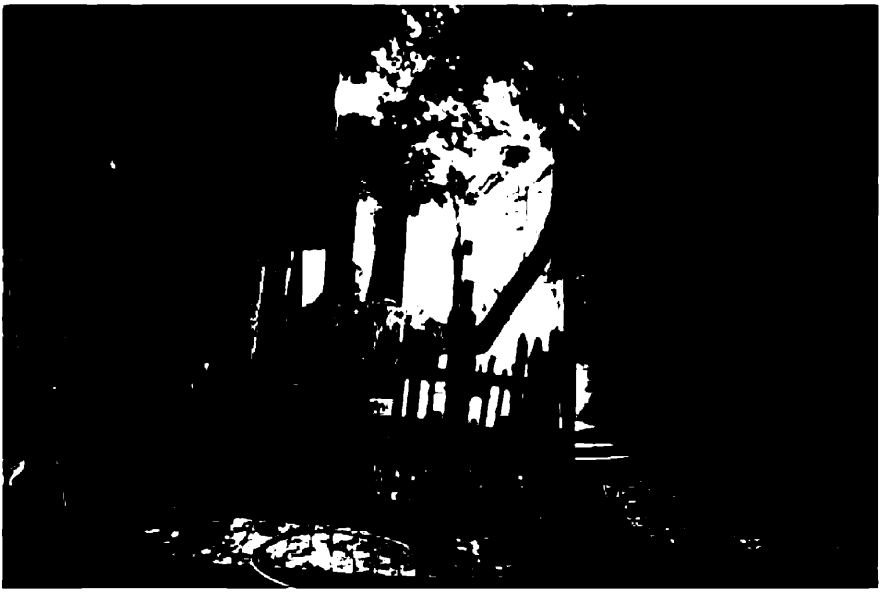

أقلتنا سفينة من الإسكندرية إلى بيروت في عام ١٩٦٩. في الأيام الأولى، نزلنا في بيت الخال الأصغر لأبي، محمود، المعروف بـ«أبو صفوان» ابنه الكبير. يقع بيتهم عند تقاطع شارعَي البربير والحرش، وفي مواجهة سينما «بيروت». استضافونا في الغرفة الواسعة لمدة شهر، حتى عثرنا على شقة مناسبة. للغرفة شبابيك خشبية مرتفعة ومزينة بنقوش، تتسلل من ثقوبها بقع من النور على الحائط الوردي كلما مرَّت سيارة في الميدان. الليلة الأولى قضتها ابنة السادسة في مراقبة انعكاسات الأضواء على السقف من خشب الشباك الكبير. في منتصف الليل استيقظ أخي علي . وكان عمره سنتين . يطلب ماءً. نهضت أمي محاولةً البحث عن الثلاجة في هدوء، من دون أن تقلق أهل البيت، وأتت له بكوب. بعد الرشفة الأولى علا صريخه حتى استيقظ أهل البيت كلهم. جاء «خالو» وزوجته مسرعَين. كانت أمي قد أعطت الصغير كأسًا من العِرق بدلًا من الماء.

كان للبيت حديقتان، إحداهما في الخلف عند المطبخ الكبير، وكانت مرتعًا للعبي أنا وهالة، ابنتهم الصغرى التي تصغرني بعام واحد. والحديقة الأكبر تُطل على شارع الحرش، على يسارها دكان خالو أبو صفوان يبيع الجرائد والأدوات المكتبية، وعلى

t.me/qurssan

الورد. أمسيات كثيرة معطرة بالجاردينيا والفتنة قضيناها في الحديقة الكبيرة. تأتي أم صفوان بصحون اللبنة والجبن القشقوان والخيار، تدق على الحائط وتصيح للبائع بعدد الأكواب المطلوبة، تمتد ذراع من خلف الجدار بصينية أكواب الجُلَّاب المثلج والمزين بالصنوبر.

ساعد أبو صفوان أبوَيَّ حتى اختارا شقة غير بعيدة عنهم في المزرعة. انتقلنا إليها حين وصل أثاثنا من مصر بسفينة مقبلة من الإسكندرية، بعد مجيئنا إلى بيروت بشهرين. كانت الشقة واسعة، تدفئها الشمس وتضيئها من كل الجوانب. لها فراندتان كبيرتان، ملأهما أبي بالزرع المتنوع، وإن كانت الجاردينيا هي النجمة الساطعة. إحدى الفراندتين في الخلف، تصل بين غرف النوم والمطبخ، والفراندة الثانية في الواجهة. جدارها زجاجي أصفر قصير. وتصل الصالون وغرفة الطعام وغرفة كبيرة. تهوى أمي تغيير نظام الغرف في البيت كنوع من التجديد، فكان لي الحظ أن أجرب النوم في كل الغرف الداخلية. حين سكنا الشقة كانت الغرفة الكبيرة مكتبًا لأبي، ثم صارت ـ لفترة وجيزة قبل الرحيل ـ لي وحدي.

غرفة الطعام ذات الكراسي الكبيرة المنجدة بجلد أصفر فاتح، وضعت فيها أمي الجرامافون، واحتلتها في الصدارة لوحة المولد لتمَّام الأكحل شموط. اللوحة عادت معنا إلى القاهرة، ثم انتقلت معنا إلى البيت الثاني أيضًا في جاردن سيتي، حتى استقرت معي وزوجي.

التحق أبي بمنظمة التحرير الفلسطينية، وصار أستاذًا في الاقتصاد في الجامعة الأمريكية في بيروت ـ حيث تعلم أبوه ـ لأنه رفض أن يتلقى راتبًا مقابل عمله الوطني.

ألحقني أبي بالمدرسة الأهلية للبنات، المدرسة نفسها التي درست فيها جدتي لأبي سميحة وتفوقت قبل سنوات طوال. في السنوات الأولى كانت المدرسة في منطقة الحمرا حتى الصف الثاني الابتدائي، ثم انتقلنا إلى المدرسة الكبيرة في حي وادي أبو

t.me/qurssan

جميل، بإدارة السيدة مقدسي قرطاس. كانت زميلة جدتي في الدراسة، وظلت تذكّرني بذلك كلما سلمتني درع التلميذة المتفوقة.

* * *

استمررنا في قضاء معظم إجازات الصيف في منزل جدتي لأمي في المندرة بالإسكندرية، كما كنا نفعل ونحن نقطن في القاهرة. إلا في السنوات التي جاء أهل الإسكندرية لزيارتنا في لبنان. الصيف الذي نُحرَم فيه من المندرة، كنت أرسَل أنا وأخي علي إلى معسكرات الشبان المسيحيين في الجبل. أثناء العام الدراسي كنت أمارس رياضة الباليه المائي في مركزهم بالروشة. كان التمرين مرتين في الأسبوع، ولم أصل إليه مرة في الموعد، إذ كان أبي دائمًا يتأخر عن مواعيده. كانت مدربتنا أمريكية، وتعطي الدرس باللغة الإنجليزية التي لم أكن متمكنة منها، فكان عليَّ التركيز بشدة حتى أفهم شرح الحركات. كان سيسهل الأمر لو استطعت أن أتابع الحركة من الفتيات الأخريات وأقلدها، لكن ذلك كان مستحيلًا حين أصل متأخرة، لأنني أعاقَب على تأخيري بتمرينات خاصة وحدي. وكان ذلك مؤلمًا، ولكن الأصعب من ذلك كان غيابي من كتيب برنامج الحفل السنوي. دائمًا الصفحة التي تحمل صورة فريقي تذيَّل بالعبارة نفسها: «رندا شعث غير موجودة بالصورة». أحتفظ بكل الكتيبات، ومايوه التمرين المقلم باللبني والأبيض ما زال يحمل رائحة كلور المسبح.

كنت في الثامنة حين شرَّف أخي الأصغر رامي الحياة. ولد بمستشفى الجامعة الأمريكية. يوم عادت أمي من المستشفى، اشتريت له بمصروفي كله بذلة بيضاء قطنية من دكان أبو نبيل في شارعنا ترحيبًا به، وأهداني صالح، جارنا، وردة بيضاء وقبلة على خدي. من يومها أحمل له شعورًا خاصًا. يكبرني صالح بعام، وحين صار في العاشرة، ولدت أمه أختًا بعد أربعة صبيان. ترجَّى صالح أمه حتى سمَّتها باسمي. يوم عيد ميلادي الثاني عشر، كانت لي مفاجأة اكتشفتها أنا ودينا، جارتي وصديقتي، في ساحة الجراج الخلفي. كتب لي صالح على الجدار بالطباشير، بخط

t.me/qurssan

عريض وبالإنجليزية:

If I love you do you love me?

ساعدتني دينا في ملء الحائط كله بـ«نعم» و«لا» مكررتين عشرات المرات.

في ليلة في وسط الأسبوع، أيقظتنا أمي في منتصف الليل، وحملتنا بملابس النوم، وبِصمت وحذر شديدين، إلى بيت الخال الكبير لأبي، محمد، الذي كان «مختار» حي المزرعة. نمنا أربعتنا في سرير واحد. في الصباح التالي لم يرسلونا إلى المدرسة، ولا في الأيام التي تلت. بقينا في ذلك البيت العتيق الكبير. وما أثارني في هذه المغامرة هو ما سُمح لي به، ولم أحلم باكتسابه في بيتنا؛ فذقت لأول مرة القهوة مخلوطة بالحليب (لم تسمح لي أمي بالاقتراب من القهوة من قبل)، وتخلت أمي عن إجراءات النظافة الصارمة والمملة قبل النوم.

t.me/qurssan

في اليوم الرابع تركنا بيت الخال الأكبر وذهبنا إلى بيت «خالو أبو صفوان» أمام سينما «بيروت»، «كي يتسنى لنا رؤية أفضل للجنازة»، كما فسرت أمي. لكني لم أفهم. كنت أتممت العاشرة قبل شهرين. لم أعِ معنى الكلمة ولم أفهم ما حدث. ناحية الحديقة الصغيرة مرت أمامنا أعداد غفيرة من البشر تحمل الأعلام واللافتات والبنادق، وتُطلق الهتافات والرصاص. ثلاثة أسماء تكرر ذكرها: كمال ناصر، كمال عدوان، وأبو يوسف. بعد مضي أسبوع من التنقل بين بيوت أخوال بابا، قررت أمي العودة بنا . نحن الأطفال . إلى المنزل.

. همَّ عايزينك انت مش عايزيني أنا والولاد.

تُركت حرية الاختيار لأبي في تكملته رحلة الاختفاء من بيتنا. بابا عاد معنا إلى البيت، ومن يومها أصبح لدينا شخص غريب يشاركنا في المنزل، حارس ضخم ينام والكلاشنكوف على ذراعه، اسمه سليمان. كنت أخاف منه أكثر من خوفي من المجهول الذي يهددنا. منذ ذلك اليوم وحتى اليوم، لم ننَم في بيت مع أبي من دون حارس.

مُيزت بغرفة مستقلة لم أهنأ بها طويلًا. انتقلتُ إليها أشهرًا معدودة قبل بداية الحرب الأهلية. غرفتي المستقلة كانت مكتب أبي، لها باب صغير جهة الممر المؤدي إلى باقي غرف النوم. من الجهة الأخرى شباك زجاجي بعرض وطول الحائط من الأرض للسقف يُفضي إلى الشرفة الرئيسية بالمنزل، والتي تطل على مدخل العمارة حيث نلعب مع أولاد الجيران. اشترت أمي للشباك الزجاجي قماش ستائر من مصر بألوان يغلب عليها الأزرق الداكن. القماش طبعت عليه رسومات فرعونية متكررة. صممتها لتتهدل من السقف إلى الأرض من الناحيتين، وخاطت شريطين من القماش نفسه، يُلفان حولها أثناء النهار، ويسدلان أثناء الليل. نقلت أمي الجرامافون والأسطوانات الموسيقية إلى غرفتي الجديدة. في الثانية عشرة اكتشفت أم كلثوم لأول مرة. اخترت أغنية «ودارت الأيام» وأعدت سماعها مرارًا حتى حفظتها. لاحظتُ أن الستارة الجديدة مزمومة تتحول إلى رفيق هائل

t.me/qurssan

للرقص، أضع يدي على أولها قبل حزام الزم، وأحمل طرفها الفضفاض باليد الأخرى. احمررت خجلًا حين لاحظت شابًّا على السطح المقابل يتابع رقصتي. ركضتُ وحكيت لأمي. لم أتخيل قَطُّ رد فعلها: ركضَت ملتاعة إلى التلفون، وفي خلال دقائق بعد المكالمة انتشرت قوات مسلحة في أرجاء البيت، يسألني أفرادها عن تحديد السطح الذي كان الشاب ينظر منه إلى شرفتنا، محاولين وأد أي محاولة للقنص. قيل لي فيما بعد إن القوات اسمها «قوات الـ١٧». أسئلة وأجوبة حالت دون اقترابي من الستارة منذ ذلك اليوم.

* * *

أخبئ سلة تحت سريري للضرورة، إذا ما اضطررنا إلى النزول إلى الملجأ عندما تشتد المعارك. لا أذكر مما كنت أخبئه فيها سوى شمعة وعلبة كبريت، ورواية «هايدي» للمؤلفة السويسرية «يوهانا شبيري»، عن حياة بنت تعيش مع جدها في جبال الألب، وتنقلني إلى الجبل والنجوم والإيمان بأن الحياة في الطبيعة تشفي من كل الأمراض. قرأتها عشرات المرات. صرت أميز أصوات الأسلحة المختلفة: «كلاشين»، «كاتيوشا»، «بازوكا». مع الوقت تعلمت أن أخمن أيضًا مناطق إطلاقها وتلقيها. أيام كثيرة لم نذهب فيها إلى المدرسة. شجع الأهل تبادل الزيارات بيني وبين الأختين زينة وأمل، صديقتيَّ من المدرسة، سواء في منزلهم في برج أبي حيدر أو في بيتنا في المزرعة، حتى نراجع دروسنا معًا، ولكننا كنا نتحدث أكثر مما نذاكر. في صباح شتوي مشمس، جلسنا ثلاثتنا في غرفتي حول المكتب، نغني بحماس شديد وبصوت عالٍ «الحالة تعبانة يا ليلى»، وكان شريف الأخوي انتهى لتوه من إذاعة برنامجه «سالكة آمنة»، وقد سخرنا من نداءاته المتكررة بأن ننزل جميعًا إلى الشارع فتختلط المِلل والمذاهب. فجأة دوَّى انفجار في السماء أعلى من صوت غنائنا.

علقت زينة:

. هاي طيارات إسرائيلية خرقت جدار الصوت. مش بعيد بكرة

t.me/qurssan

يوصلوا لقلب بيروت.

أخيرًا قرر أبواي استكمال عامنا الدراسي في القاهرة، على أن نعود في العطلة الصيفية؛ لذا تركنا كل شيء على حاله: البيت واللعب والكتب والصور والدفاتر، ولم نحمل معنا سوى بعض الملابس الشتوية.

* * *

فجر يوم خريفي غائم عام ١٩٧٥. في موقف السيارات أمام بنايتنا في حي المزرعة، حقائب سفرنا تُصف أعلى سيارتنا «البيجو ٤٠٤» البيضاء، لنتجه إلى المطار. في مواجهتنا سيارة أجرة كبيرة تنتظر عائلة صالح موصللي وحقائبهم، لينطلقوا أيضًا إلى مدينتهم، حلب.

في علبة بنفسجية صغيرة مزيَّنة بزهور جاردينيا مطبوعة، خبأتُ بعناية، بعيدًا عن الأعين المتطفلة، رموز ما تبقى من ذكريات طفولتي: ورقة صغيرة بها عنوان ناقص، قطعة لبان أعطاني إياها صالح ابن الجيران، خاتم فضي رفيع كان لصديقاتي الثلاث دينا وهدى وليلى مثله في البناية التي أسكنها، رسائل طفولة تبادلناها نحن الأربعة لنؤكد أننا نحب بعضنا بعضًا وأننا لن نفترق أبدًا، خصلة شعر بنية لصديقتي دينا بادلتها بأخرى سوداء من شعري، سوار معدني مكسور كان يخص جدة زميلتي كارون في المدرسة، بعض الصور.

لم يخطر ببالي أن يصبح هذا الصندوق كل ما تبقى لي من سنوات طفولتي في بيروت. باستثناء ذكريات تومض في خيالي من حين إلى آخر وتظهر لي أحلامًا.

t.me/qurssan

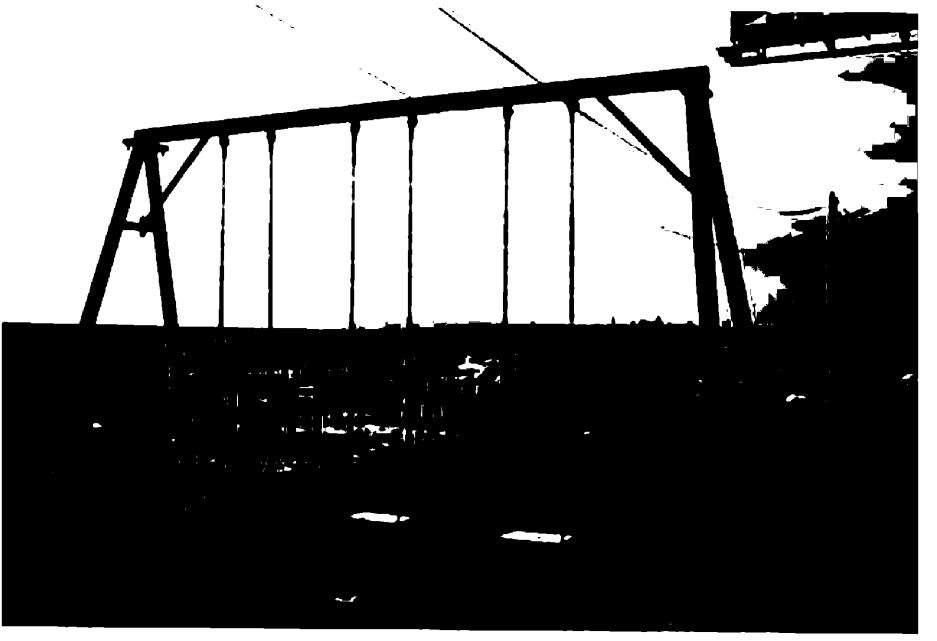

الحياة صارت مستحيلة. بعد أكثر من ست سنوات في لبنان، بات أبي من دون مصدر رزق. ذهب إلى الكويت والسعودية بشهاداته العلمية بحثًا عن عمل، وسافرت معه أمي والمولود الجديد، رامي. تُركت أنا وعلي في رعاية جدتي سميحة في القاهرة، في شقتنا في جاردن سيتي. انشغلت جدتي عنا في ذلك الوقت بمشكلات عمتي الصغرى زينب وزواجها المتعثر، وساعد انشغالها على تقوية رباط الأُخوة بيني وبين علي، يحمي أحدنا الآخر من مزاج جدتي العصبي، ونقضي الليل مستلقيَين جنبًا إلى جنب، نحكي حتى يغلبنا النوم. نصحو وحدنا في السادسة، وإن لم نرتَد المدرسة نفسها. نفطر معًا، أحضر له ساندويتشات اليوم وأخرج قبله. وكانت جدتي قد تعرفت على جارة جديدة فلسطينية من بيت لحم اسمها نادية تقطن الدور الرابع، تأتي لزيارة جدتي بطفلتها الشقراء ذات العينين الخضراوين بلون البسلة، تتركها في عهدتي في الشرفة الصغيرة فألاعبها وأشاركها الحلوى التي تصلني من شباك العمارة المقابلة.

* * *

بعد عام من الترحال، استقرت الحال بوالدي مرة ثانية في القاهرة. صارت الحارة نادية أقرب صديقة لأمي، تزورها كل يوم.

t.me/qurssan

وبسبب الحرب، انضمت إلينا أيضًا عائلة لبنانية صديقة، آل مكداشي، واستقروا في القاهرة. استأجروا شقة في العمارة نفسها التي نقطن بها. أسَّس أبي وعمو محمد مؤسسة تدريب في الهندسة والإدارة. التحقت بناتهم وأخواي بالمدرسة نفسها، وهكذا أصبحت الأسر الثلاث ـ أسرة عمو محمد وزوجته حسنا، وأسرة نادية التلحمية وعمو «آفو» في الشارع المقابل، وأسرتنا ـ عائلة ممتدة. أطلقوا على مجلسهم «الحارة».

* * *

يدغدغنا أبي ويحضننا ويقبِّلنا طول الوقت. يعبِّر عن محبته بحسية حانية لنا نحن الأربعة، أمي وأخويَّ وأنا. تخجل أمي من لمساته ومداعباته لها أمامنا، تصيح به: «بس يا نبيل! كفاية». تزوج أمي وأبي عن قصة حب، كانا زميلين في كلية التجارة بالإسكندرية، يفصلهما عام دراسي واحد، وتفصل تسعة أشهر بين تاريخَي ولادتهما. دافعا عن حبهما وصمدا أمام رفض أبيه الذي كان يريده أن يُنهي الدكتوراه قبل أي ارتباط، وأمام ابن عم لأمي ظهر فجأة. باركت حبهما جدتي فاطمة. قبلت طلبه يد أمي حين جاء يزورها وحده، وإن كان شرطها وشرط أمي أنها ستنتظر عودته ولن تتزوجه إلا بمباركة أهله. بعد تفوق أبي في رسالة الماجستير، بارك جدي علي ارتباطهما، وأقام عرسًا مهولًا من دون عريس، وأرسل أمي لأبي في أمريكا تؤازره في دراسته.

* * *

تعبِّر أمي عن حبها لنا بالخدمات العملية: تطبخ لنا وجبة نحبها، تشتري ما نحتاج إليه من ملابس وأدوات، تنظم لنا غرفنا حتى لو كررت مئات المرات أنها مسؤوليتنا، تَحضر مجلس الآباء في المدرسة. تيتمت أمي وهي في الثالثة عشرة، وشاركت أمها مسؤولية بيت وسبعة إخوة وأخوات.

لم يحدث في حياتي سوى مرة واحدة أن حدثتني عن الحب. كنا في ظُهر أحد أيام الإجازة الصيفية، قبل قيلولتها المقدسة وبعد يوم البحر، وكنا متمددتَين على السرير، أنا «الفلحوسة» بنت الـ١٤

t.me/qurssan

سنة وهي. سألتني عن صفات فتى أحلامي، فأجبتها:

. عايزاه ماركسي يوتوبي.

شهقت ماما وخبطت على صدرها وقالت:

. هوَّ انتِ عارفة أصلًا معنى الكلمة دي إيه؟

لا أتذكر إن كنتُ وقتها «فاهمة يعني إيه». وحزَّمتُ أمي المسكينة ولم تسألني مرةً أخرى.

* * *

تركت عمتي ميسون وزوجها أمين شقتهما الصغيرة في شارع جسر السويس، وبنيا عمارة في آخر الحي السابع بمدينة نصر، فانتقلت جدتي لتسكن في الدور الثالث منها. كنا نَصِفُ الطريق للذهاب إليها بأنه «في نهاية شارع الطيران وعندما تنتهي الدنيا، تنعطف إلى اليسار». تفرح سمر، ابنة عمتي، بالفضاء المحيط وتقرر بدء رياضة الركض الصباحية في الشوارع الخالية. تشتري ملابس رياضية وحذاء جديدًا، وتبدأ يومًا في الركض وتتوقف بعدها بثوانٍ. كانت عشرات الكلاب الضالة قد قررت ممارسة الرياضة خلفها.

t.me/qurssan

أرتدي الآن زيًّا مدرسيًّا بنيًّا له ربطة عنق قبيحة مقلمة بالورب باللونين الكناري والبني. صارت مدرستي الإعدادية والثانوية أبعد من حضانتي بكثير ـ في مصر الجديدة. أنتظر الأتوبيس أنا وأربعة طلاب في موقف واحد في شارع قصر العيني. في نهاية شارعنا «السلاملك» يتفرع شارع آخر اسمه «الحديقة»، في منتصفه عمارة لها مدخلان . أحدهما في شارع الحديقة والآخر يفضي إلى شارع قصر العيني . تختصر طريق المشي. وقتها كان للسيارات العابرة في شارع قصر العيني اتجاهان، وفي المنتصف خط «الترماي». أسعد بخبث حين تقع السنجة أمامنا فيتعطل الترام دقائق، تتيح لي الفرجة على الركاب بينما يهرول الكمساري ويشبك السنجة بالخط الكهربائي. واتتني جرأة ركوب الترام يومًا حين لم ألحق بموعد الأتوبيس، «الترماي» إلى باب اللوق ومنه إلى الإسعاف ومنه إلى منشية البكري، أمشي دقائق من المحطة وأصل إلى مدخل مدرسة البنات في شارع جسر السويس. أعدل من الزي الكئيب قبل الابتسام لبواب المدرسة ليسمح لي بالدخول متأخرة عن الطابور الصباحي.

أفتتِنُ بشخصية «هيلين كيلر» بعد قراءة كتاب عنها. أقرر أن أمشي في شوارع جاردن سيتي الملتوية مغمضة العينين. قسَمت

t.me/qurssan

الأتوبيس أبعد عن بيتنا. عند العمارة الضخمة في آخر شارع إسماعيل باشا. أتمرن كل صباح. عددت الخطوات من عمارتنا إلى آخر السور الحديدي للفيلّا التي اشترتها السفارة السعودية. أتوقف لأنظر مرةً إلى المبنى الجميل المهجور وحديقته المهملة داخل السور، ومرةً إلى الأشجار عند تقاطع شارع الحديقة. أمرُّ بمدرسة الإبراهيمية وأعرِّج على شارع مضرب النشاب وأغمض عينيَّ ثانية. أفتحهما قبل الميدان الصغير وأعبر مبصرة. لا أذكر إن كنت، بعد شهور من التمرين، قد قطعت المراحل الأربع من دون النظر خلسة.

* * *

استأجر أبي شقة أخرى في جاردن سيتي، في شارع مضرب النشاب الذي تغير اسمه إلى «مديرية التحرير»، وقرر عام ١٩٧٧ نقل دار الفتى العربي إليها. وكانت أول دار عربية لكتب الأطفال، أنشأها مع مجموعة من الكُتاب والفنانين قبيل الحرب في بيروت. عملت أمي في الدار، تترجم بعض الكتب وتجمع قصص التراث المصري والأشعار الفلسطينية. بعد ذلك بثلاث سنوات، صرت طالبة في الجامعة الأمريكية. تصحو أمي مبكرة وتتحرك قبلي إلى المكتب، أمرُّ عليها يوم الامتحان لتدعو لي قبل أن أنطلق إلى آخر شارع قصر العيني. كان المرور بمكتبها عند عودتي مثيرًا، فهناك أقابل الكُتاب والرسامين الذين أدعوهم بلقب «عمو». عبد الفتاح الجمل خاصة كان يعاملني كشخصٍ ناضج، يتناقش معي ويستمع إليَّ.

* * *

تغيرت معالم شقتنا في جاردن سيتي مرارًا. صُممت لعازب، بغرفة نوم واحدة كبيرة وحمام ومطبخ صغيرين وثلاث صالات متصلة. الصالة الأكبر عند المدخل تتوسطها مدفأة بالحجر الأحمر موصولة بسطح العمارة. الشرفة في آخر الشقة تصل الغرفة والصالات. كانت قبل أن نسكنها لزوجين إيطاليين مسنين. حين عاد أبي من أمريكا حائزًا زوجته ودرجة الدكتوراه في الاقتصاد

t.me/qurssan

وطفلة عمرها ثلاث سنوات ونصف، أهداه جدي علي هذه الشقة. قرر أبواي اقتطاع جزء من إحدى الصالات بحائط، وصار هذا الجزء غرفة صغيرة شاركني فيها علي. مع عودتنا من لبنان كنا قد صرنا ثلاثة بعد مولد رامي. انتقل أبواي إلى الغرفة الصغيرة، واحتللنا نحن الثلاثة الغرفة الكبيرة، مع إنشاء فاصل خشبي لا يصل إلى السقف، وستارة قماش بمثابة باب، حتى يكون لي، أنا الابنة الكبرى، خصوصية تجاه الصبيَّين. لكن ذلك لم يحُل دون خلافاتنا المستمرة. مفتاح الكهرباء واحد، وهما المتحكمان في الإضاءة وفي نوع الموسيقى التي أختارها، فالصوت مسموع في الغرفة كلها. جوارب وصواريخ ورقية كثيرة طارت عبر الفاصل في حروبنا الصغيرة. عند نجاحي في الثانوية وتقديم أوراقي للجامعة، استنفد أبواي مدخراتهما ليأتيا بمهندس ديكور أنشأ لي غرفة مستقلة، مستخدمًا الشرفة وجزءًا من صالة الطعام في الناحية الشرقية من الشقة.

قيلولة أمي ظلت مقدسة. ساعة ونصف من الصمت الإجباري كل يوم. تصحو في هدوء. تخبز كعكة تكون جاهزة مع أكواب النسكافيه للسيدات، والمثلجات للصغار. مجلس «الحارة» ينعقد يوميًّا في السادسة. تحتل ماما وجارتانا طنط نادية وحسنا الصالون، يحتسين القهوة ويناقشن أحوال الصغار والدنيا والمسلسلات. ينتقل الصغار ـ رامي ورنا وميرال ولينا ونادين وريم ـ بعد تناولهم نصيبهم من الكعك إما إلى بيت حسنا في الدور الخامس، أو عبر الشارع إلى بيت نادية. ويهرب الرجال إلى المنزل الذي بقي فارغًا من السيدات والأطفال. أنا تائهة بين الأدوار، وعلي يقرأ كتابًا، إلى أن اكتشف التدخين. صار وقت اجتماع الحارة فرصته للتزويغ في شوارع جاردن سيتي هو ودخانه. مسكه متلبسًا عمو محمد وعمو «آفو» عدة مرات. عنفاه ولكنهما لم يُبلغا أمي وأبي.

نصبت البنات الخمس رامي قائدًا، ومنحنه لقب «الوطواط الكبير». لا يحب الاستيقاظ بالنهار ويفضل الليل. يلعبون في أحد البيوت الثلاثة. يتحكم رامي ويشترط قواعد اللعب. هم من

t.me/qurssan

اكتشفوا إمكانية الاختفاء في سطح العمارة. سطح كبير ويكشف الحي كله من النيل وعمارة «بلمونت» والمدرسة والدير من جهة، حتى نهاية الحي في شارع قصر العيني حيث شارع إسماعيل باشا وبداية شارع المبتديان. كلها كانت يومًا ما قصرًا واحدًا، «العالي». فوق السطح باءت محاولاتهم للشيِّ بالفشل. حرقوا دائمًا ما شووه، لكن أسوأ حالة كانت يوم حاولوا إنقاذ الفحم الجاف بسكب زجاجة كولونيا عليه.

حاز رامي دراجة في عيد ميلاده الحادي عشر. تعرف على ورشة نفخ الإطارات في شارع قصر العيني بجانب ورشة صنع المفاتيح عند منعرج شارع الطلمبات. كان يعلوها مجسم مفتاح كبير، وكان العلامة الوحيدة للدخول إلى بيتنا من الشارع. في شارع قصر العيني ورش عديدة لخدمات الحي: نافخ الإطارات، صانع المفاتيح، ساعاتي، محل زجاج المرايا والبراويز، مكوجي، ورشة لتصليح الكراسي، مصوراتي ومحطة بنزين وصيدلية. لم تكن هناك دكاكين سوى محل لبيع الخمور ومحل خردوات واحد. أول دكان كان «باتا» للأحذية، عند آخر شارع حوض اللبن وتقاطعه مع قصر العيني. ما زالت موجودة إلى الآن ومعها عشرات من البقالين ودكاكين تبيع التلفونات والجوارب والملابس الداخلية. ورشة صنع المفاتيح تخلت عن مجسم المفتاح وأقامت قهوة «الكراسي البيضا»، صرتُ أعرف مداخل الحي من دون المجسم. تخلى رامي، بدراجته، عن زعامة البنات وعن شوارع جاردن سيتي. صار له رفقاء دراجة آخرون من المنيرة، وانطلقوا متسابقين على الكورنيش، عبروا النهر وجابوا أنحاء العجوزة والدقي.

t.me/qurssan

نخرج من جبل الرمل فقط بصحبة أبي وأمي. نزور جدتي سميحة في شارع وابور المياه أو نتجه إلى وسط البلد للتسوق. في شارع سعد زغلول، نمر كل مرة بمحل «جوبالديس» الهندي للمصوغات، الذي كان صديقًا للعائلة. دكانه مظلم ومليء بالأفيال العاجية والخشبية. أملُ الجلوس في محله وأحلم باللحظة التي تنتهي فيها الزيارة ويحين وقت الذهاب إلى مكتبة دار المعارف في الشارع نفسه. أفرح بزيارة سمير، زميل دراسة أبي، ووالدته الكريمة في جليم. عندهما بيانو كبير في غرفة الجلوس ويسمح للطفلة باللعب على أصابعه مهما كان مزعجًا، طمعًا في أن يعزف أبي ويريحهم مني. الرحلة الأهم كانت لحضور فيلم في سينما «مترو» أو «أمير» يتبعه دائمًا عشاء في مطعم «إيليت».

* * *

في صيف ١٩٧٧، اصطحبني والداي، أنا وابن خالتي خالد، إلى سينما «أمير» لحضور فيلم «الزلزال»، من بطولة «تشارلتون هيستون» و«آفا جاردنر». لأول مرة زُوِّدت دور السينما بسماعات ضخمة لتعضيد الإحساس باهتزازات الزلزال. انتظرنا دورنا في سينما «مترو» ولكن الفيلم كان للكبار فقط. دخلت أنا بصحبة والدي، ومنعوا خالد من الدخول. كنت في الرابعة عشرة وهو

t.me/qurssan

يصغرني بعام. لم يفلح تحايل أبي. اضطرت تيتة فاطمة إلى العودة به إلى المندرة بالترام.

t.me/qurssan

١١

أول محاضرة لي في الجامعة كانت درس الكتابة. طلبت منا الأستاذة أن نكتب نصًا نَصِف فيه رحلتنا من البيت إلى الجامعة. حاولت، وعجزت عن التعبير: رحلتي قصيرة، فبيتنا في جاردن سيتي والجامعة في ميدان التحرير. أخطو خطوات قليلة وأنعطف من شارعنا إلى شارع قصر العيني، أمشي سبع دقائق، أمرُّ ببعض المباني وأصل إلى باب «إيوارت» في شارع الشيخ ريحان. لم أجد ما يستدعي وصفه في طريقي. تذكرت فقط أن أيام المدرسة كان «الترماي» يمر في منتصف شارع قصر العيني وأن السنجة كانت تقع دائمًا في المكان نفسه. لكنهم ألغوا خط باب اللوق، كما اختفى مجسم المفتاح من أعلى محل المفاتيح في نهاية شارعنا. لم يستوقفني في الرحلة سوى ضريح ذلك الشيخ المجهول، يوسف، المدفون في تجويف بين عمارتين ضخمتين في شارع قصر العيني: قبة خضراء وصندوق نذور. في كتب التاريخ، الشيخ يوسف «لص وشيخ منصر»، ولكنه حين قُبض عليه بوشاية من أحد أفراد عصابته، حاز العفو من «لاظ أوغلي» بك. بجانب الضريح محل خردوات كبير مظلم، يبيع الأزرار والخيوط وبعض الحلوى. واجهته خشبية ضخمة، وعلى كل جانب من مدخله وُضعت مرآة طويلة في إطار عالٍ. لم أرَ يومًا مشتريًا داخل الدكان، أما واجهته فدائمًا مزدحمة. يتوقف المارة أمام المرآتين ويعدلون من هندامهم. وقت دخول المدارس والخروج منها لا تسمح التلميذات بغيرهن أمامهما، يمشطن شعورهن ويُحكمن دبابيس الشعر. أما أنا فأحاول غض بصري عن الالتفات إلى المرآة. اقتنعتُ بنصيحة أهلي بالتركيز على ما يحويه عقلي. بمرور الأيام بَنت الشرطة غرفة زجاجية أمام الضريح، يرتاحون فيها من حراسة مبنى مجلس الشعب الواقع في الناحية الأخرى من الشارع. في السنة الأولى لثورة يناير بُني سور وهُدم، ثم بُني سوران وهُدما. أثناء أحداث مجلس الشعب في السنة الأولى للثورة، أدركت في دهشة أنني كنت، عبر السنين، أمشي على الرصيف الشمال ولا أعطي وقتًا كافيًا للفرجة

t.me/qurssan

على المباني على يمين الشارع. ارتبط الشارع الآن بمنظر العساكر وهم يتبولون من سطح المبنى علنًا على المارة أجمعين. دكان الخردوات صار ثلاثة: محل لبيع التلفونات المحمولة، وبقال، ومحل عصير. الضريح ما زال مختبئًا بين العمارتين خلف الغرفة الزجاجية. أنا لم أنجح في الدرس الأول في الكتابة، وبقيت أبحث عن المرآة التي اختفت.

t.me/qurssan

١٢

طـالت الحـرب الأهليـة فـي لبنـان واحتلـت إسـرائيل جنوبـه. أغسطس ١٩٨٢، بيروت محاصَرة أرضًا وبحرًا وجوًّا. القاهرة أيضًا مشتعلة حزًّا ورطوبة. تُعقد لجان مناصرة للشعبين الفلسطيني واللبنـاني، أنغمـس مـع مجموعـات مختلفـة، محاولـةً أن أكـون «مواطنًا مفيدًا»؛ أساعد يوميًّا في توزيع أوراق تحثُّ المواطنين علـى مقاطعـة البضـائع الأمريكيـة. مجموعتنا مكوَّنة من خمس بنات، طبخنا «الفِرا» لأول مرة في حياتنا لنثبت الملصقات في حارة بمصر القديمة. أعجب لفقر المنطقة، دكانها الوحيد بالكاد يبيع الجبن القريش والشاي السايب. أعجب أكثر للذكر الوحيد الذي ظهر فجأة مع المجموعة، آمرًا متسلطًا مع أنه لم يشارك في التحضير. في مرة أخرى سأهتم بتنسيق مؤتمر شعبي في السيدة زينـب يتضـمن تعليق لافتـات وترتيب كراسي وتوزيع كتيبات، والأهـم، شـرح الأخبـار للأهـالي. بعـد يـوم طويـل مرهق عرضت صديقةٌ توصيل ما تيسر من المشاركين في سيارتها «الفولكس» الصغيرة، ركبها ستة أشخاص بأعجوبة، كنت الأولى في ترتيب الوصـول. السـيدة زينـب لا تبعد كثيرًا عـن جـاردن سيتي. حين توقفت صديقتي أمام العمارة، صاح أحدهم:

. إيه ده ساكنة في جاردن سيتي؟ برجوازية يعني؟

ولأول مرة تسعفني سرعة البديهة:

. أيوه برجوازية عندي تطلعات بروليتارية.

* * *

أحد الاجتماعات المسائية للجنة مناصرة شعبَي لبنان وفلسطين أثناء الحرب عُقد فوق سطح منزل محامٍ في المنيل. نقاشات وصـراخ وكراسي فراشة تزداد فوق السطح المطل على النيل. وسط اللغط والزحام، طلبت مني صديقة العائلة أن أعتني بابنها الصغير حتى تشتري دواءً من الصيدلية. مرت دقائق، فجأة هرج ومرج، وإذا بقوات الأمن تهجم على السطح. أسرع الجميع بالقفز

t.me/qurssan

والركض محاولين الوصول إلى الشارع، وأنا معهم، ويدي في يد ياسر الصغير.

في الشارع «بوكسات» الأمن وهراواتهم في انتظار الجميع. حاولت الركض، ولكن سرعان ما أدركت عدم جدوى ركضي ومعي الصبي. وسط التدافع ورجال الأمن والراكضين في كل اتجاه والسيارات والدكاكين، لمحت دكانًا ملونًا منيرًا أمامه طابور، فوقفنا في ذيله من دون تفكير. اكتشفت أنه محل آيس كريم، فاشتريت بسكوتتين لي وللصغير، وخرجنا إلى الشارع مرةً أخرى والآيس كريم في يدينا. ما زال الأمن يضرب الناس ويقبض عليهم. لم نحاول الركض، وقفنا على حافة الرصيف بجانب المدرعة نراقب الضرب ونلحس الآيس كريم في صمت. كنا الوحيدَين الناجيَين من الاعتقال. عدنا إلى جاردن سيتي من المنيل مشيًا.

* * *

نجوت من حادث المنيل، ومن ضرب مسيرة الأزهر، ومن غباء بعض المشاركين في اللجان المناصرة. الحدث المثير بالنسبة إليّ كان الأسبوع الفني والثقافي في «قاعة النيل» التابعة للآباء الفرنسيسكان في شارع محمد فريد. كان جدولًا حافلًا، اشترك في فقراته عدد كبير من الفنانين المصريين، بعرض لوحاتهم الفنية، وبالغناء والعزف، وعرض الأفلام وإلقاء الشعر. أقامت دار الفتى العربي معرض كتاب أمام القاعة. وكانت أمي قد سمعت عن فيلم توثيقي عن المرأة الفلسطينية عنوانه «الذاكرة الخصبة»، لمخرج فلسطيني شاب من الناصرة اسمه ميشيل خليفي، فسعت جاهدة لجمع المال ودعوة المخرج إلى المشاركة شخصيًا وعرض فيلمه خلال فعاليات هذا الأسبوع، وساعدها الناقد السينمائي سمير فريد. دعا والدي ميشيل خليفي بعدها إلى العشاء في منزلنا للتعرف إليه، فحكى لنا المخرج حلمه لفيلمه الروائي الأول. أهم ليلة بالنسبة إليّ كانت الأخيرة، حيث غنى للجمهور الشيخ إمام، وغنيت أنا لفلسطين فقرة صغيرة قبله. كان صوتي مقبولًا قبل التدخين.

t.me/qurssan

استمر حصار بيروت ٨٨ يومًا، إلى أن قرروا إجلاء الفدائيين. وكانت السفن المتجهة إلى السودان واليمن ستمر عبر قناة السويس، فقررنا انتظارها هناك. مرت عليَّ صديقتي ميسون بسيارتها «السيات ١٣٣» الصغيرة ذات البابين، تجمعت السيارات في ميدان التحرير عند الفجر، وانطلقنا في شوارع المدينة النائمة إلى طريق السويس. لحقت بالركب سيارات كثيرة، يرفرف من كل من شبابيكها الخلفية علم فلسطيني كبير. في مصر الجديدة، انضمت إلينا بعض الباصات من جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني. لما وصلنا إلى الطريق الصحراوي كان الموكب يشبه لقطة من أفلام «كيروساوا». وقفنا للاستراحة والتشاور. عشرات من السيارات والباصات اصطفت على جانبَي الطريق، مكوِّنة صفَّين ملونَين طويلَين ممتدَّين في الصحراء الذهبية، والأعلام ترفرف عاليًا في السماء الزرقاء. تبادلنا زجاجات الماء والساندويتشات. اخترنا السويس تحية للفدائيين الخارجين من معركة بيروت، الذين صمدوا ثلاثة أشهر في وجه القصف الإسرائيلي. اشتعلت في كل راديوهات السيارات أغاني النضال، تحضيرًا للحناجر التي ستغني للأبطال: فيروز، الشيخ إمام، مارسيل خليفة، أغاني المقاومة، وحتى أغاني الثورة لعبد الحليم حافظ، مع استبدال اسم ياسر بناصر. في القنطرة خرج عجوز فلسطيني محاولًا اللحاق بالركب، اعتقد من منظر الموكب أن فلسطين تحررت، وظل يدبك بعصاه أمام السيارات. فشلنا في إفهامه أن فلسطين لم تتحرر بعد، فاصطحبناه معنا.

قبل أن نصل إلى السويس، أوقفتنا سيارات أمن الدولة ووجهتنا إلى المكان الذي اختاروه لانتظار الفدائيين: منخفض عريض يقع على القناة مباشرة، بعيدًا عن العمران. لم نعترض. كانت الساعة العاشرة والنصف صباحًا، والمفترض أن تمر السفن في الثانية عشرة. الحماس على أشده، الحناجر تصدح بالأغاني الوطنية، وبهتاف: «ثورة ثورة حتى النصر». عُلقت لافتات الترحيب بين النخلات لتكون واضحة للمراكب عن بُعد. زَينت الأعلام

t.me/qurssan

الفلسطينية صدور الجميع وغطت الأحجار المطلة على القناة. الرجال والنساء والأطفال يدبكون مهللين وملوحين بالأعلام:

ياسر واحنا كلنا حواليك

ياسر، ياسر، ياسر

وعيون الدنيا عليك

اقتربت الثانية عشرة، اقترب الجمع من مياه القناة العميقة حتى كاد البعض يقع فيها، وعلا صوت الحناجر.

لكنّ حتى الثالثة بعد الظهر لم تلُح أي بادرة لظهور السفن. الشمس ساطعة حامية فوق رؤوسنا، فلا ساتر على ضفة القناة سوى بعض النخلات النحيفة. بدأ الأطفال في التململ مطالبين أهاليهم بالطعام. جاء جندي يخبرنا أن السفن لن تصل قبل السادسة. كانت فرصة لقليل من الراحة، خصوصًا للحناجر التي بدأت تصيبها البحة. افترشنا الأرض وتشاركنا في القليل من الطعام الموجود، فالرحلة كان مقدر لها أن تنتهي قبل العصر.

قبل السادسة بكثير صدحت الحناجر مرة أخرى. اتجهت الأنظار إلى الشمال: الكل يريد أن يحظى شخصيًّا باللمحة الأولى. عادت حلقة الدبكة وسط الهتاف، رفرفت الأعلام عاليًا بنسائم الأصيل. لكن المغيب أدركنا بظلامه قبل أن يدركنا بالبشارة.

ظهرت مشكلة جديدة: كيف للفدائيين أن يرونا في الظلام؟ كيف سيدرون بوجودنا وقد أتينا فقط لتحيتهم؟ كيف سيقرأون اللافتات المرسومة بالمحبة والأشواق؟ ذهب وفد صغير للتفاوض مع ضابط المباحث المكلف بمراقبتنا، أو بـ«حراستنا»، فكانت النتيجة تركيب كشافين على النخلتين أنفسهما اللتين عُلقت بينهما اللافتة القماشية الكبيرة. كشافان أرسلا نورًا ضعيفًا أضاء بالكاد أشباحنا الهائمة في ظلام الصحراء.

حين صارت العاشرة كان كثير من الأطفال قد ناموا في أحضان أمهاتهم. تفرق الجمع مفترشين الصخور والأرض، منهم من يدخن

t.me/qurssan

في صمت، ومنهم من يقرأ في هدوء أبياتًا حفظها من الشعر، ومنهم من يناجي السماء ويحلم بالوطن. ناقش البعض بداية العودة إلى القاهرة، وبخاصة العائلات التي جاءت بأطفالها أو بكبار السن، وطرح البعض فكرة المبيت في بورسعيد والعودة في الصباح التالي. تمسكت الأغلبية بالانتظار. بما أن أحدًا لم ينفِ مرورهم الليلة، فالأمل موجود. لننتظر.

الليل في الصحراء. صمت مطبق. إرهاق يوم طويل أشعلته مشاعر في أوجها. لذا كان أول ناقوس هدَر من بعيد كافيًا لإيقاظ الجميع كمن ألهبتهم ضربة سوط مفاجئة. في لحظة هبُّوا، كتلة بشرية واحدة، رفعوا الأعلام التي التحفوا بها من البرد، بدأوا الركض في الاتجاه نفسه الذي تسير فيه السفن، محاولين اللحاق بها هباءً، صائحين:

ثورة ثورة حتى النصر

ثورة ثورة حتى النصر

ثورة ثورة حتى النصر

سمعونا في السفن فبدأوا في التصفير وأشعلوا لنا من على متنها مئات الولاعات تومض، مشارِكة التحية في قلب الليل. عبروا في ثلاث دقائق واختفوا، أكملنا الركض في الاتجاه نفسه في قمة انفعالنا، وما زال هتاف «ثورة ثورة حتى النصر» يدوِّي ويعود مكررًا مع صدى الصوت والريح. انخرط الجميع في البكاء.

* * *

مجموعة صغيرة من الأصدقاء قررت المبيت في بورسعيد بدلًا من العودة إلى القاهرة. السفن الآتية من لبنان ستبقى يومين في الميناء هناك. كنت مع من وصلوا إلى بورسعيد قبل الفجر، عثرنا على بنسيون صغير، طرقنا بابه حتى خرج لنا العامل بالفانلة الداخلية وربطة عنق. صدَّق أننا إخوة وأخوات وأعطانا غرفتين متصلتين، واحدة للبنات والأخرى للشباب، وحمامًا. لم يهمنا أن السريرين الكبيرين في كل غرفة لا يتسعان للجميع؛ نام بعضنا

t.me/qurssan

على الأرض. سويعات ونذهب لمحاولة الحصول على تصريح أمني للإبحار بزورق صغير يصل بنا إلى السفن الراسية في عرض البحر. بعد مفاوضات استمرت ساعة في مبنى هيئة قناة السويس، وافق الأمن.

كان الترحيب بنا على السفينة حميمًا وحارًّا. حمَّلونا مسؤولية إرسال خطاباتهم. كل فدائي يريد أن يعطينا عنوان أهله لطمأنتهم أنهم أحياء وأنهم في طريقهم إلى اليمن.

قرر فدائي شاب أن يُريني السفينة بأكملها. أمسك بيدي وأخذني إلى الأدوار الأربعة حتى السطح، يرحب بي المقاتلون ويُحمِّلوني مزيدًا من الوريقات الصغيرة بالعناوين والأسماء. هو لم ينبس بكلمة طوال ثلاث ساعات مدة الزيارة، لم يقُل حتى اسمه، وإن ظلَّ ممسكًا بيدي. وقت الرحيل، على باب السفينة، نظر طويلًا إليَّ بعينَين زرقاوَين بلون السماء، ثم أخرج مشط الرصاص من بندقيته، أهداني إياه، وقال لي:

. سنلتقي في القدس.

t.me/qurssan

وأنا صغيرة حُرمت من لقائه. كنت أُترك في البيت لرعاية أخوَيَّ ليالي زيارة أبي وأمي لبيوت الأصدقاء للاستمتاع بغنائه. الشيخ إمام بقي حتى اليوم محظورًا في القنوات الرسمية.

قبلت الفرصة المتاحة لي لأكمل دراستي العليا في الولايات المتحدة الأمريكية. كانت أول رحلة أغادر فيها أرض الوطن لمدة طويلة، قد تبلغ سنة كاملة قبل أن أستطيع العودة في زيارة أولى. اجتاحتني أحاسيس قوية ومتضاربة بسبب فراق الأهل والبيت، والبيت الأكبر: مشاعر مختلطة من الرهبة أمام المجهول، والشوق، والحزن للفراق، الخوف من تغيُّر الأشياء في غيابي. هالني ما يمكن أن أفقده في غيابي. أحسست بأني أريد وداع من كوَّنوا رموز شبابي ووعيي. أردت أن أزور الشيخ إمام.

طلبت مساعدة صديقتي عزة، بسبب صداقة والدتها محسنة توفيق مع الشيخ، ومعرفتها بمكان إقامته. انطلقنا بعد ظهر يوم إلى حوش قدم، سألنا عن الشيخ في الحارة، عرفه الكل ودلونا على دكان البقال الذي كان يجلس دومًا أمامه. حين علم الشيخ بمقصدنا قام واستضافنا في المقهى أمام منزله. جلسنا ثلاثتنا نشرب الكوكاكولا. لم أكتفِ بذلك، طلبت منه زيارة بيته.

t.me/qurssan

كـان محـرَجًا للغايـة مـن غرفتـه المتواضـعة، ولكنـه وافـق بعـد إصراري.

صعدنا السلالم القديمة إلى بيته المكوَّن من غرفتين صغيرتين لـيس بـهما مـن الأثـاث سـوى سـرير عـريض وبعـض الكراسـي الخشبية. كانت ملابسه كلها معلقة على ماسورة خشبية بعرض حـائط الغرفـة التـي اسـتقبلنا فيـها، بجانبـها عُلـق العود، وشباك صغير.

مرَّت لحظات من الصمت العميق. ثم استجمعت شجاعتي وسألته إن كان يريد أن أصف له المنظر من الشباك. وصف لنا هو المئذنة العثمانية التي تجاوره، وأضاف أنه أذَّن للصلاة منها في شبابه، ومن جامع آخر بالحي نفسه.

أفشـت عزة سـرِّي: قـالت له إنني بدأت تعلُّم العزف على العود، فأصرَّ على إنزال عوده المعلق وطالبني بالعزف. تصاعدت الدماء إلى وجهي وأذنيَّ، لم يرَها الشيخ وإن كنت متأكدة أنه أحس بتوتري، لم أكن سوى تلميذة مبتدئة. دسَّ بالعود بين ذراعيَّ وبدأ في توجيه النصح في مسك الريشة. جاملني بقوله إنني بقليل من التمرين سأصبح عازفة ماهرة.

لحظات من صمت أحاطت بنا للمرة الثانية. كنت أتمنى أن يعزف هو لي، لي وحدي أنا . أنا أزور الشيخ إمام في بيته، أنا أودع الشيخ، أنا مسافرة وحدي. فجأة تحقق الحلم: سألني عن أغنيتي المفضـلة، بتلـهف طلبـت أن أسـمع «حـلُّوا المراكب»، وغناها لي. بعدها غنى لي أغنيته هو المفضلة: «عشق الصبايا». كان مبتسمًا وهو يقول:

شوف الحكاية يا ولّه شوف الحكاية

عشق الصبايا يا ولّه طوِّل معايا

بعد أن انتهى وقفنا ثلاثتنا وقفة الوداع. استند الشيخ على كتفينا أنا وعزة، ارتعش وارتعشنا، بكى وقال:

t.me/qurssan

. إوعوا تنسوني... إوعوا تنسوني.

كانت لحظة مرعبة لجمالها. أجبت أنا:

. إحنا ما نقدرش ننساك انت اللي ما تنساناش، هتوحشنا.

نزلـتُ السـلالم وقـدماي تصـطكان ببعضـهما. وسـافرت بعـدها بيومين.

رحلت أمي في حادث سيارة بعد سفري بشهرين.

* * *

أنهيت دراستي في أقل من عامين. كان قرار العودة إلى الولايات المتحدة بعد موت أمي صعبًا. لكل فرد في العائلة رأي، والنصائح متناقضـــــة، بـــــين أن أبقـــى لأديـــر المـــنزل

وأرع ى أبي وأخويَّ، أو أن أسافر لأعود إلى الجامعة. بعد

أربعين أمي، تذكرت فخرها وفرحتها بدراستي، فقررت العودة لاستكمالها. سجلت نفسي في المواد الدراسية بشكل مكثف، حتى أتمكن من العودة في أقرب وقت. انتقلت من سكن الطالبات الصاخب إلى شقة صغيرة هادئة بالقرب من الجامعة حتى أستطيع التركيز. لم أُقِم علاقة متينة بالمدينة وسكانها. كرست جهدي في الدراسة. سلمت مشروع الماجستير. قصة مصورة عن العرب المقيمين في ولاية مينسوتا حيث كنت أدرس. وتأكدت

t.me/qurssan

أنني نجحت، وقبل استلام الشهادة عدت إلى مصر ولم أحضر حفل التخرج.

* * *

بعد عودتي عام ١٩٨٧، عُرِض عليَّ العمل في فريق تصميم الكتب وإخراجها في دار الفتى العربي. ترددت كثيرًا لأنني لم أكن أرغب في العمل حيث يعمل أبي، ولطالما رفضتُ أي محاباة تأتيني لستُ أهلًا لها. لكن العمل في الدار كان في صميم تخصصي، وقد أحببت فكرة المشاركة بخبرتي في دار نشر مختلفة، تنتج أهم الكتب وأجملها للفتيان والفتيات في العالم العربي. فقبلت الوظيفة.

حين بدأت العمل، كان محيي الدين اللباد مدير قسم التصميم، وكنت أهابه. يدع كل فرد في الفريق ينهي عمله، ثم ينتقد العمل ويطلب تغييره. أما عدلي رزق الله، الذي خلفه، فكانت طريقته في العمل مختلفة: يشرح مطولًا ويستمع إلينا ويوجِّه النصح في كل خطوة، حتى ينتهي العمل على أكمل وجه. لم أنجح في الاقتراب من اللباد إلا بعد ذلك بسنوات، حين دُعينا معًا ومع ستة فنانين آخرين من مصر إلى معرض جماعي في متحف «تابييس» في برشلونة.

يوم قبض أول راتب كنت مدعوة إلى حفل كتب كتاب صديقة. ارتديت فستانًا أنيقًا وتجمَّلت بالكحل للحفل المقام في بيت أهلها. بعد وصولي اكتشفت أنني نسيت النقود في حقيبة يدي، فخبَّأتها في غرفة العروس. في رحلة العودة فتحت المحفظة لأطمئن، كانت خالية إلا من ربع جنيه ورق. في الشهر التالي، انطلقت من المكتب بعد تلقي الراتب، وصرفته كله في شراء هدايا لأخويَّ وتيتة وصديقتي نادية.

بعد شهرين من العمل، طالبت بالحمَّام المتوسط في المكتب، الذي لم يكن مستخدمًا، وحوَّلته إلى غرفة مظلمة. على أنغام الموسيقى، قضيت أيامًا وليالي داخله أحمض الصور التي كنت ألتقطها خارج أوقات العمل وأطبعها. ما زال الحمام مجهَّزًا حتى

t.me/qurssan

اليوم ـ غرفة مظلمة لإنتاج الصور والأحلام.

في أحد اجتماعات التحرير، اقترحتُ فكرة كتاب مصور للفتيان عن الحياة اليومية في «مخيم كندا»، وهو مخيم للاجئين الفلسطينيين أضحت ثلاثة أرباع أرضه في رفح المصرية، وبقي ربعه في فلسطين بعد تقسيم الأرض في مباحثات «كامب ديفيد». تخلصت إسرائيل من ٥٠٠٠ فلسطيني ومزقت هوياتهم، ومصر لم تقبل إعطاءهم وثيقة لاجئين لتحتفظ بحقهم في العودة. ظلَّ وضعهم معلقًا وغريبًا منذ تسليم رفح إلى مصر في ١٩٨٢، محتجزين في مساحة كيلومتر مربع ونصف على الحدود حتى عودتهم إلى قطاع غزة في ١٩٩٤ بعد مفاوضات غزة-أريحا. قضيت عامًا بين رفح والقاهرة، أصوِّر الحياة اليومية هناك وأعود إلى سكان المخيم بالصور. تعلمت مبكرًا أن إهداء الصور لأصحابها يقربني من الأهالي ويُكسبني ثقتهم، بالإضافة إلى أن ذلك شكَّل عاملًا أساسيًّا في استكمال القصة، فقد كان أهالي المخيم يذكِّرونني، بعد رؤية الصور في كل زيارة، بأماكن وأفكار جديدة تحكي حكايتهم. صدر كتابي الأول «وطني على مرمى حجر» في ١٩٨٩.

t.me/qurssan

١٤

أشعر بالوحدة في مدينة يسكنها الملايين. أتحمل مسؤولية بيت كبير: أبي رجل مسؤول وضيوفه متنوعون وكثيرًا ما يجتمعون في المنزل، وصبيَّان أحدهما مراهق صغير غاضب لموت أمه مبكرًا، والآخر مراهق كبير يميل إلى الصمت والوحدة. أنا لست زوجته ولا أمهما، بل الابنة الوحيدة والأخت الكبرى. تولت الجدتان رعايتهما حتى عدتُ من دراستي بالخارج، وبسرعة نسي أخواي نظام أمي التشاركي في أعباء المنزل، فصارت هذه الأخيرة حكرًا على النساء.

t.me/qurssan

بعد غياب أمي، وبينما أنا في أمريكا، انتقلَت العائلة إلى شقة أكبر في جاردن سيتي نفسها، لكنْ في الدور الرابع عشر من عمارة حديثة. اشترى والدي الشقة ولم تلحق أمي نتيجة تشطيبها. عند عودتي، كان أبي وأخواي قد تأقلموا على وحشة رحيل أمي. أما أنا فكنت أتوهم، وحدي في أمريكا، أنها هناك في القاهرة. وبالعودة إلى القاهرة، صار عليَّ مواجهة حقيقتين وحدي: حقيقة غيابها، وحقيقة منزل جديد في عمارة لا تحمل تاريخًا لأحد. أجلس بالقرب من شباك غرفتي الجديدة، المطلة على جامع السلطان حسن، والقلعة، والقمر، وأبكي. في غضون أشهر قليلة اكتسبت شخصية الأخت دائمة الشكوى والصياح.

* * *

أنا أعمل ستة أيام في الأسبوع في دار الفتى العربي، وأعود لأتابع نظافة البيت وما سأحضره من طعام للأسرة، وأتأكد من عدد القطع العائدة من المكوجي، وأدوِّن كل قرش صُرف في دفتر صغير. أبي مشغول في عمله والمفاوضات، ورامي يغلق باب غرفته ويستمع إلى موسيقى «هيفي ميتال» بأعلى صوت ممكن. ثم وقع علي في غرام دينا، أخت صديقتي نادية، فصار لا يترك التلفون لحظة، حتى إنني عاتبته مرة مازحة بأن فرصة الحب لن تأتيني، لأنه لن يكون باستطاعة أحد الاتصال بي أبدًا. في تلك الفترة، تحملت مسؤوليات جديدة مبكرة بتفاصيل كثيرة. وحين تزوجت، بعدها بسنوات، كنت خبيرة سابقة في الشؤون المنزلية.

* * *

أحب المشي والتوهان في شوارع أكتشفها لأول مرة. يترك فيَّ لقاء الناس والاستماع إلى قصصهم . كيف عاشوا وكيف تغلبوا على المصاعب . صدى، وأجد فيما يقولونه علاقة ما بحياتي. تلهمني تفاصيل الحياة اليومية، وأجد فيها سحرًا وحكمة. وكوني مصورة حجة عظيمة لممارسة التوهان.

من شباك غرفتي اكتشفت الأسطح من حولي. كل سطح يحمل قصصًا وسيرًا لحياة بإيقاعات مختلفة. هنا عائلات يقف أفرادها

t.me/qurssan

طابورًا في الصباح أمام الحمَّام الوحيد، وهنا سطح مقسوم إلى مساحتين: جهة لعائلات النوبة، وأخرى للعائلات التي أتت من الدلتا. هناك سطح مزين بنباتات كثيرة صار حديقة، وسطح آخر يعود عائله ساعة قبل المغيب، يفرش ملاءة على الأرض ويتناول طعامه مع سرب حمام يعوده من أرجاء المدينة. يؤنسني الحمام. أتخيله يزور الأميرة الأسيرة في البرج العالي. بعدها بزمن واتتني الشجاعة أن أحمل كاميرتي وأذهب مستكشفة أسطح جاردن سيتي وقصص ساكنيها. وجدت في التصوير ملاذًا أقرب إلى طبيعتي للتعبير عن مشاعري ورؤيتي.

* * *

أهداني أبي كاميرتي الأولى وأنا في الثامنة. في بداية العطلة الصيفية حجز للأسرة الصغيرة أسبوعًا في جزيرة رودس، قبل قضاء باقي أشهر الصيف في الإسكندرية. وكان هو يحمل دائمًا كاميرا يسجل بها رحلاتنا وأعياد ميلادنا.

حين أصررت، بعد انتهاء الثانوية، على أن أدرس التصوير، أقنعني أن تكوين خلفية ثقافية وتاريخية مهمة للمصور، أهم من تعلم التقنيات. كان أبي بليغًا ومقنعًا في حديثه، لم أشبهه في بلاغته وكنت أجد صعوبة في مجاراته. ربما ظن أن تأجيل قراري قد يغيره. لكنه، بعد انتهاء دراستي للتاريخ والعلوم السياسية، تكفل بسفري لأكمل دراساتي العليا في الإعلام المرئي. حين عدت، وفي بداية عملي كمصورة، كان يسعد بأن يرافقني في رحلات التصوير، يقود السيارة ويتوقف في المكان الذي أحدده وينتظرني. في كل سفرية عمل إلى الخارج يعود لي بالأحماض والورق الحساس اللازمَين للأفلام الأبيض والأسود. بعد عشرين عامًا، صار التصوير والتحميض بالغَي الصعوبة لعدم توفر الأفلام، فقد انتقلنا إلى العالم الرقمي وأغلقت المحلات التي تبيع الأحماض والورق الحساس. صارت الغرفة المظلمة مخزنًا للأوراق، واشترى لي أبي أول كاميرا رقمية.

t.me/qurssan

لم أقتنع بإصرار العائلة على أن الأوان قد آن للارتباط. اعتبروا عودتي من الولايات المتحدة بشهادة الماجستير أقصى تأجيل ممكن لهذا الموضوع. رددت عمتي ميسون لأبي مقولة: «اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك». في يوم جمعة بعد شهر من بداية عملي في دار الفتى العربي، أبلغني أبي أننا سنلتقي عمتي وزوجها وجدتي في النادي. شعرت بخطر: هم ليسوا مشتركين في النادي ولم نلتقِ هناك من قبل. سألت أبي صراحة، واعترف بأن عمتي ستعرفني إلى طبيب شاب. بدأت في الصراخ والعتاب والتهديد بأنني سأبقى في البيت، وطلبت منه الاتصال بعمتي وإلغاء مشروع العريس. وأغلقت باب غرفتي. عاد إليّ بعد اتصال تلفوني وقال إنه اعتذر لعمتي وطلب منها بدورها الاعتذار للعريس. ثم طلب مني أن نذهب لملاقاة عمتي وجدتي للغداء. حرصًا ارتديت ملابس الرياضة وعقصت شعري الطويل في ضفيرة.

اتخذت العائلة طاولة كبيرة أمام «التراك» الصغير. علّقت جدتي على ملابسي الرياضية، وسألتني إن كنت نويت التريض. كانت أنظارهم، هي وعمتي وزوجها، متجهة نحو رجل ما يحاول جاهدًا تمثيل شخصية الرياضي المخضرم. فضحت أنفاسه المضطربة

t.me/qurssan

المتقطعة ووجهه الأحمر المنتفخ فشلَه، على الرغم من بذلته الرياضية ذات الماركة العالمية ونظارة الشمس ذات الإطار الذهبي. لم تطُل تمثيلية الركض طويلًا. اقترب من طاولتنا، ودَعته عمتي للجلوس فتفضل، وبكلمات قليلة فهمت أنه طبيب أطفال ويمتلك سيارة. انزعجت من قلة ذوقه، فحتى بعد أن هدأت أنفاسه وبدأ في شرب عصير النادي الشهير بـ«تاج الجزيرة»، لم يخلع نظارته ذات العدستين العاكستين، اللتين تتيحان لنظراته التجول بحرية من دون إمكان أن يتتبعها أحد. قررت أن أصمت، أن أواجه غضبي من الموقف بلعب دور الخرساء. حاول أبي إزالة التوتر، فأخذ يحكي عن طبيب أطفال ذهب بي إليه بعد عودتنا من أمريكا عندما أنهى أبي دراسته. كانت حرارتي قد ارتفعت من دون سبب مفهوم، ولم يحصل على موعد من الطبيب إلا في العاشرة مساء. شكا أبي للعريس الموعد المتأخر لطفلة في الرابعة، وأخبره أن الذي أثار غضبه أكثر كان وصول الطبيب إلى عيادته بعد منتصف الليل. وصف للعريس غضبه وتوبيخه للطبيب الذي لا يحترم المواعيد ولا يراعي الأطفال. ختم حكايته بسؤال:

. أتمنى تكون بتحترم مواعيدك يا دكتور؟

. هوَّ فيه حد بيحترم مواعيد الأيام دي؟

جاءه هذا الرد صادمًا فالتزم أبي الصمت بدوره. دقائق متوترة عالجَتها جدتي بالحديث عن الطقس، ثم التقط زوج عمتي الحديث وبادر بخبر عن منع المنتقبات من دخول كلية الطب، وسأل العريسَ عن رأيه، فأجاب:

ـ حاجة بشعة! همَّ يسمحوا للوحشين بالدخول ويمنعوا الناس الكويسة، هههه.

اشتطتُ غضبًا، لا أنا ولا عمتي ولا جدتي نرتدي الحجاب. «وحشين»؟! نهضت كالملسوعة من مكاني أبحث عن كشك سجائر في النادي. لم أكن مدخنة، وعلمت لأول مرة أنه يحظر بيع السجائر فى النادى. خرجت إلى الشارع وعدت بعلبة. جلست فى

t.me/qurssan

كرسي مواجه للطبيب، رفعت ساقًا على كرسي فارغ، أشعلت سيجارة لأول مرة في حياتي. نفثت دخانها في وجهه. كانت إيذانًا بانتهاء المسرحية. بعد ذهابه، وذهاب عمتي وجدتي، كنتُ حادة وجادة مع أبي: لن أسمح أبدًا بتكرار موقف مشابه. اعتذر. كانت المرة الوحيدة التي أُشعره بالذنب بدلًا مني. لن أتزوج بهذه الطريقة. لن أتزوج أبدًا. إلا لو أحببتُ، واقتنعتُ بالعيش مطولًا مع إنسان. لم أؤمن قَطُّ بذوبان شخصين في كيان واحد، بل باثنين مكتملين يختاران مشاركة الحياة.

t.me/qurssan

١٦

تزورنا جدتي لأبي، سميحة، وجدتي لأمي، فاطمة، من حين إلى آخر. فاطمة تحمل لنا بيضًا وحمامًا وفطيرًا، وتملأ مكحلتي النحاسية كحلًا صنعته لي من لبان الذكر. لا تتحمل الابتعاد عن بيتها وحديقتها ونخلاتها وطيورها في المندرة أكثر من خمسة أيام. أكبر مخاوفها في الرحلة هي ركوب القطار، وخاصة النزول منه. تقول: «عتبة بابه عالية عن رصيف المحطة». كادت تقع أكثر من مرة.

تيتة فاطمة تنتقد ارتدائي البنطلون وتكرر أمنيتها أن تراني مرة بفستان. تنزعج من شعري الطويل المموج «المنكوش» وترجوني فرده، إلى أن أخبرتها أن ست الحسن والجمال، في الحواديت التي كانت تحكيها لنا صغارًا، كان شعرها طويلًا ومموجًا. حين ناقشتني، أخرجت لها كتاب قصص شعبية مصرية رسمها إيهاب شاكر، من إصدارات دار الفتى العربي، وكانت أمي قد ساهمت في جمعها تحت إشراف عبد الفتاح الجمل. رأت جدتي رسومات ست الحسن كما تخيَّلها إيهاب شاكر بشعر غزير مموج يشبه شعري. وشعرَت بالفخر أنني أعمل حيث عملت أمي.

أعود من العمل كل يوم لأخطط رحلة قصيرة أنا وهي: سوق باب اللوق للأدوات المنزلية، مولد السيدة زينب، وكثيرًا السينما. اصطحبتها مرة هي وجدتي سميحة، اللبنانية، إلى فيلم «سمك لبن تمر هندي». جلستُ بينهما. ظلت جدتي سميحة منزعجة طوال الوقت، تريد العودة إلى البيت ولا تفهم نكات الفيلم، بينما جدتي فاطمة «مسخسخة على روحها» من الضحك.

في اليوم الأخير قبل عودتها إلى الإسكندرية، وقبل تركي المكتب في الدور الأرضي في شارع مديرية التحرير بدقائق، سمعتُ صراخًا. بدلًا من الاتجاه إلى المنزل خرجت إلى شارع قصر العيني. رأيت بشرًا يركضون في كل اتجاه: صياح وبكاء في مدرسة البنات في الفيلَّا الأثرية عبر الشارع (صارت مبنى لمجلة «روز اليوسف»)، المعلمات يركضن تاركات الطالبات خلفهن

t.me/qurssan

يتقافزن فوق السلالم العتيقة ويسحق بعضهن بعضًا. أجذب مازًا وأسأله عما يجري. يصيح:

. زلزال! زلزال!

أقلق وأحث الخطى إلى المنزل. جدتي وحدها. يحذرني البواب من الصعود، ويؤكد لي أن جدتي آخر من سمحوا له بالنزول بالمصعد.

. وراحت فين؟

يؤكدون أنها ركبت السيارة مع جيراننا. أنتظرها في الشارع ساعتين. أضرب أخماسًا في أسداس. أخيرًا تهلُّ سيارة الجيران، ومعهم تيتة. خافت حين اهتزَّ المنزل ووقعت كل الكتب والصور من الأرفف، ففتحت الباب ورأت جيراننا يحاولون تهدئة الشغالة الصغيرة، التي كانت ستقفز من الدور الرابع عشر لخوفها من وقوع العمارة. نزلت تيتة معهم من دون مفتاح، فعرضوا عليها الذهاب معهم إلى النادي.

تجولت جدتي في جاردن سيتي وذهبت إلى نادي الجزيرة بقميص النوم وطرحة الصلاة. لم تذكر بنطلوناتي وشعري المنكوش وتعترض عليهما قَطُّ بعدها.

* * *

كلما زرنا بيت المندرة، استيقظنا كل صباح على السؤال نفسه، يكون بائع اللبن منتظرًا عند الباب القِبلي وتيتة تتساءل:

. محدش شاف البوك بتاعي؟

تضع حلة اللبن لتغلي وهي ما زالت تبحث عنه: في البوفيه، في درج ماكينة الخياطة «السينجر»، في جيب الروب، وتحت سجادة الصلاة. يتكرر السؤال حين يأتي ابن الجيران في موعد الذهاب لشراء طعمية الإفطار. «البوك»، حافظة نقودها الجلدية، تحتفظ فيها بفكة النقود وببطاقة التموين.

t.me/qurssan

حتى وإن غيرت تنظيم أثاث الغرف من حين إلى آخر، فإن غرفتها تبقى كما هي. فقط يتغير مكان كيس الفستق الذي تحبه، تخبئه كل مرة في مكان مختلف وتتذكر مكانه بوضوح. البشاكير وملابس النوم وطرح الصلاة في الأدراج الخشبية. لأمي درج خاص، صار لي بعد رحيلها.

تيتة لا تطلب منا مساعدة في أعباء المنزل والحديقة، إلا في استلام حصتها من التموين. ترسلنا إلى مصطفى الإدكاوي البقال، الذي يبعد مئات الأمتار من الناحية القِبلية من دون عبور سكة قطار أبو قير. الطريق رملي آمن، ممتد حتى محطة المندرة وبيت خالي تركي. نعود بالتموين المكون من زيت وسمنة وشاي، وسكر حباته كبيرة ولونه أصفر ولا يُحلي، ومكعبات صابون غسيل، وجاز. لأن الإدكاوي «بلديات» جدي من إدكو ويعرفنا واحدًا واحدًا، كان يمكن لأيٍّ منا الذهاب إليه والعودة بنصيب تيتة من التموين الذي يحفظه لها إلى أن تأتي، حتى لو تأخرت عن الميعاد.

نضع الكيس في المطبخ ونركض للعب في الحديقة. يلاحقنا صوتها: «محدش شاف البوك يا ولاد؟».

t.me/qurssan

أحب يوم ميلادي. يحل في أواخر يناير وعادة أثناء معرض الكتاب. أفكر في طرق مبتكرة للاحتفال بنفسي: أركب حنطورًا وألف حول البرج قاصدة كوبري قصر النيل، أذهب لزيارة الهرم، أكون من الأوائل في مقهى الفيشاوي لتناول قهوة الصباح مع ساندويتشات الفول الساخنة، أشتري الورود، أنتظر بشغف مكالمات التهنئة. هذا بالطبع غير الاحتفال مع الأهل والأصدقاء في المساء. عيد ميلادي عام ١٩٩٠ كان حدثًا مميزًا: قبله بأيام قليلة نُظِّمت احتفالية لفلسطين على مدى ثلاثة أيام في مسرح «الجمهورية»، وكانت فرقة «صابرين» المَقدسية تغني في الليالي الثلاث، فحضرت كل الحفلات.

* * *

قبلها بشهور، وصلني شريط «موت النبي» هدية من القدس، من أستاذتي في الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية وجارتي «باربارا هارلو». أذبت الشريط سماعًا، واستبشرت بالفرقة المَقدسية الطليعية التي تحاول إيجاد صيغة تطوير للأغنية الفلسطينية بخليط من الموسيقى الغربية والهندية والجاز في قالب عربي مختلف. كملنا حيران، المغنية ذات الشعر الأسود

t.me/qurssan

القصير والملابس البسيطة، تقودنا جميعًا بحضورها الطاغي إلى حالة تجلٍّ. تتلاعب بطبقات صوتها كما تشاء، حتى يصيبك الشك في مصدره ومنتهاه. سعدت لأن أعضاء الفرقة كلهم من عمري، وانتظرت أنا وصديقتي نادية طويلًا كل ليلة بعد الحفلة، على باب المسرح، لعلنا نستطيع رؤيتهم عن قرب وتهنئتهم. وفي الثالثة نجحنا. عزَّفني إليهم المخرج ميشيل خليفي، صديق العائلة وصديقهم. ذهبنا معهم للعشاء عند «كبابجي الرفاعي» في السيدة زينب، الذي يقدم أفخر موزة كل ثلاثاء. هناك عقدنا عقد الصداقة. كانت هذه أول مرة أتعرف إلى فلسطينيين من عمري يعيشون في فلسطين ويعملون بالفن. تلك كانت غالبًا الميزة الوحيدة لاتفاقيات «كامب ديفيد»: صار باستطاعة الفلسطينيين الصامدين في الداخل زيارة مصر، وصار باستطاعتي أن ألمسهم وأتكلم معهم وأشم رائحة فلسطين في ملابسهم. أن يصبح لي أصدقاء هناك، في البلد الحلم، أحسسني باقتراب تحقيقه. استطعنا إضافة حفلة للفرقة في معرض الكتاب المرتقب بعد أسبوع. لم يكن بإمكان الجهة المضيفة للفرقة أن تتكفل ماديًّا بأيام الاستضافة الإضافية، فرحب أبي باستضافتهم عندنا: فلنفتح شقة الطفولة المغلقة، التي تنتظر احتضان أخي وعروسه! بحماس شديد عملنا على تنظيفها وتجهيزها لاستقبال الضيوف.

وهذا ما كان. فرقة «صابرين» تعزف من أجلي يوم عيد ميلادي في معرض الكتاب، وفي المساء نفسه يحضر أعضاء الفرقة الاحتفال في البيت ويتعرفون إلى بقية أصحابي. بذل أبي مجهودًا فائقًا في ترتيب البيت وشراء الزهور وطلب المأكولات والحلويات. بعد احتفال معرض الكتاب، أسرعتُ إلى المنزل، واستمتعت بحمَّام دافئ وتعطرت، وارتديت بلوفرًا وبنطلونًا أسودين وحلقًا فضيًّا صغيرًا بفصوص تلمع، وأسدلت شعري الطويل على كتفيَّ. رقصت فرحًا عندما دق الباب معلنًا بدء الليلة. توالى حضور أصدقائي، وحضرت الفرقة بآلاتها بعد وصول الجميع، وأهداني عيسى وردة حمراء شبكتها في شعري. أحسست أنني جميلة. عزف لنا أبي على الأورج الصغير، وغنى أغنية «المامبو دا سودانى» و«حديقة البلدية»، الأغنيتين اللتين

t.me/qurssan

غناهما لنا ورددناهما معه في كل مناسبة سعيدة: أعياد ميلادنا، وأفراح العائلة، ورحلاتنا. رقصت أنا وسمر ابنة عمتي على أنغام عزفه. بدأ يعقوب وعودة وعيسى بدق الطبول، وشاركهم أخواي علي ورامي، فكانوا أشبه بحلقة زار. أقمنا مسابقة رمي الفراولة والتقاطها بالفم من دون أيدٍ، رقص لنا عبد الله رقصة سودانية، ثم التف الجميع ودبكنا حتى أنهكت قوانا. أعلنَت كميليا أنه آن الأوان لنلتقي في فلسطين. طوال الحفل لم يهدأ أبي عن تقديم الطعام والاهتمام بكل الموجودين، كان يعمل كأم العروس ليلة الفرح، سعيدًا بسعادتي وبفرحة لقاء الجميع. احتفت بنا دينا بتسجيل الحفل بالكاميرا الفيديو. فكرنا في إرسال نسخة منه فيما بعد إلى أصحابنا في القدس، ولكن الأمر كان معقدًا. أبي يعد إرهابيًا في إسرائيل، خفنا على جماعة «صابرين» من أن يراقَب الشريط قبل أن يحصلوا عليه وبه توثيق أنهم التقوا بأبي. حاولنا قصَّ الأجزاء التي يظهر فيها في الفيلم وفشلنا. أبي طويل وعريض وكان يومها أيضًا يرتدي صديريًا أصفر ليمونيًا. وكان حاضرًا معنا طوال السهرة، ظاهرًا في جميع اللقطات.

كان يوم عودة الفرقة إلى فلسطين مناحة. سهرنا معًا حتى الفجر وأوصلناهم باكرًا إلى المطار أنا ونادية ودينا أختها، عروسة أخي علي، ولا نعرف كيف سنلتقي مجددًا، ولا متى، ولا أين. بعد أن اختفوا خلف قضبان المطار القديم، وقفنا ثلاثتنا طويلًا نبكي. نصف ساعة هي طول الرحلة بالطائرة بين مصر وفلسطين، أقصر من الرحلة بين القاهرة وأسوان!

* * *

تعاهدت أنا ومجموعة من الأصدقاء أن نزور بقعة جديدة من مصر في كل إجازة نصف عام. معظمهم يعرفون بعضهم منذ الطفولة لصداقة أهلهم، والبعض من الجامعة من الذين يتفقون في الأفكار والقيم. كنا في رحلة إلى واحة الداخلة حين بدأت طائرات الحلفاء قصف بغداد، معلنةً بذلك انتهاء المهلة التي أعطوها لصدام حسين كي يُخرج قواته من الكويت. في زيارة معبد هابى النائى، أرادت نادية حفر أسمائنا على الأعمدة وذكر

t.me/qurssan

التاريخ. اعترض أيمن بأنه تشويه للأثر، فأصرت هي، معتبرةً أن حفر أسمائنا وتاريخ زيارتنا سيصبح هو نفسه أثرًا، لأن التاريخ قد يتغير لو بدأت حرب في المنطقة. بعد ليلة عصيبة حاولنا فيها متابعة الأخبار من الراديو الترانزيستور، قررنا العودة إلى القاهرة.

اختلفت آراء الأصدقاء بين مؤيد لصدام ومؤيد لأمريكا، وخوَّن الناس بعضهم بعضًا، وتوالت الاتهامات والتكهنات. أنا لم أؤيد صدام في احتلاله الكويت ولا توهمت لحظة أن هذا هو الطريق لتحرير القدس، ولم أؤيد العدوان الأمريكي في هجومه الوحشي على شعب العراق. فلم أجد لي مناصرين إلا نادية، الوحيدة التي فهمت وأيدتني الرأي. كرهتُ موسيقى إذاعة «السي إن إن» التي تفضلوا علينا بها مجانًا لكي نتابع المعركة، وكرهتُ الأغاني العربية الحماسية السخيفة عن «أبو عُدي». حاولتُ تجاهل المناقشات السياسية بزيارة صديقتنا العراقية. أسأل عنها وأواسيها في مصابها في عائلتها في البصرة. التحقتُ بدورة تدريب في مطبعة «إنترناشيونال» أتمرن فيها على أساليب الطباعة وفصل الألوان. يومَ عرف العمال أنني فلسطينية، تركوا عملهم وآلاتهم، والتفوا حولي حتى كدت ألتصق بالحائط، وبدأوا في مهاجمتي على أنني مؤيدة لصدام. كدت أختنق. حاولت شرح موقفي، لكنهم حاصروني واحتجزوني بين الهويتين. عندما عدتُ إلى المنزل، انزويت وحدي في غرفتي، رافضة الحديث مع أي إنسان. تمخضَت العزلة التي فرضتها على نفسي عن فكرة ملهمة: آن الأوان لزيارة فلسطين. قد تُغير الحرب الخريطة وأفشل حتى في استعمال جواز سفري الأمريكي الذي مُنحته بولادتي هناك. بدأت التخطيط لرحلة حلمتُ بها طول عمري.

* * *

طرحتُ فكرة السفر على أبي، فطلب مني الانتظار حتى يستشير أصدقاءه ومعارفه في الداخل، ولم يعد إليَّ بأي رد. لأسبوع اختلق معي مشكلات غريبة: أزرار قميصه ناقصة، مفتاح الخزانة ضائع، قهوة الصباح طعمها تغيَّر... والطامة الكبرى كانت حين أرسلت السائق في مشوار من دون إذنه، فصرخ في وجهي.

t.me/qurssan

هرعت إلى غرفتي باكية، ثم قررت العودة إلى غرفته في الحال. طرقتُ برِقة الباب الموصد وفتحته. كان هو أيضًا يبكي. لم يستطع أن يرفض ذهابي إلى فلسطين، وفي الوقت نفسه كان قلقًا عليَّ.

تناقشنا في تفاصيل الفكرة. اعترف لي بأنه اتصل بفيصل الحسيني، الذي أكَّد له أن لا خطورة عليَّ، فأسوأ ما يمكن حدوثه هو أن يرفضوا دخولي. سألته عمَّا يتمنى أن أحضره من البلاد، وعن أماكن يريدني أن أزورها أو أشخاص يبعث لهم السلام. لم يطلب أي شيء. كأنه متأكد من أنني لن أستطيع الدخول.

في يوليو عام ١٩٩٠ قبل حرب العراق، رافقتُ فرقة «صابرين» في رحلتهم الفنية إلى تونس. عرضوا في ١٢ مدينة، واختُتمت الجولة بحفلة في مهرجان قرطاج. عملت معهم مصورةَ الفرقة ومساعدًا إداريًّا. تجددت دعوتهم لي لزيارتهم في رام الله، صادقةً وقوية. قالوا إن بيوتهم مفتوحة لي في أي وقت، وطلبوا مني طلبًا واحدًا: ألا أحمل معي أسماءهم ولا عناوينهم وأرقام تلفوناتهم، وأن أحفظها عن ظهر قلب. ووعدوني بانتظاري في المطار.

كانت خطتي كالتالي: في نوفمبر سأذهب لزيارة منال في جنيف. هناك سأطلب جواز سفر أمريكيًّا جديدًا ليصدر في بلد غير مصر. سأحجز تذكرتي ذهابًا وعودة من هناك. سأحاول أن أزيل اسم أبي من جواز السفر وأبقي على لقب العائلة فقط. لن أكذب في أي معلومة عني، ولكنني لن أقدمها لهم على طبق من فضة.

ما حجتي لتغيير جواز السفر الصالح، ولإزالة اسم أبي منه؟ إذا ضيعته مشكلة، إذا غسلته مشكلة ثانية، أيامًا ظللت أفكر في طريقة. منال صديقتي ومضيفتي في جنيف حاولت مساندتي، إذ كنتُ في حالة عصبية يرثى لها. في الليلة الثالثة، أعدَّت العشاء بنفسها في مطبخها الصغير، أكلنا في صمت والجواز أمامنا، ومن بعدها احتسينا القهوة. قطع الصمتَ جرسُ التلفون. وقفتُ مسرعة، فاندلقت القهوة، مغطية الطاولة والصحون وجواز السفر.

t.me/qurssan

١٨

حطت الطائرة السويسرية مساء في الساعة السابعة إلا خمس دقائق. دامت الرحلة أربع ساعات وكنتُ أرتجف طوال الوقت. أهدئ نفسي بفكرة واحدة: سأبقى فرحة وفخورًا بأن قدميَّ لمستا أرض فلسطين، وإن كان للحظات، وإن منعوني من الدخول. تلكأت في الطابور مرات حتى وصلتُ إلى الجندي، صرت خارج المطار في الساعة السابعة وخمس دقائق. نعم، أنا في تل أبيب. في ساحة المطار المظلمة والخالية. لم أجد وجهًا أعرفه، تلفتُ يمينًا وشمالًا أبحث عن حل للمشكلة. كشك تلفون؟ أصدقائي منعوني من حمل أرقامهم للأمان، لكني سجلت رقم كميليا بطريقة مبتكرة على نسج «المغامرون الخمسة»، حملت رواية معي وأشرت إلى أرقام صفحات بتتالي الرقم. تذكرت أنه ليس معي أي نوع من الفكة، فتلفتُّ مرةً ثانية أبحث عن صراف. الظلام يخفي كل شيء. جررت العربة الصغيرة التي تحمل حقائبي بتوجس، لمحت من بعيد شخصًا يشبه شيري صديقتنا وزميلة كميليا في المنزل. سرت خطوتين ثم ركضتُ لألقي بنفسي بين ذراعيها وأنا أصيح أنهم لم يسألوني أي سؤال وأنني خرجت في خمس دقائق. أسكتتني سريعًا وقالت إن المخابرات والجنود يحققون مع كل أعضاء فرقة «صابرين» الذين جاءوا لاستقبالي. قالت لي أن أتظاهر بعدم معرفتي بأي شخص منهم

t.me/qurssan

حين يظهرون. تلت عليَّ القصة الرسمية التي سأدَّعيها في حال استجوابي أنا أيضًا: هي زميلتي في الجامعة في أمريكا. لم يطُل انتظاري، ظهر لي سامي، ابن رائد، ورائد وسعيد ويعقوب وعيسى وكميليا. عرَّفتني إليهم شيري فردًا فردًا، سلمتُ عليهم كالأغراب. مشينا بصمت في اتجاه عربة سعيد «الميني باص». بعد أن انطلقنا في الظلام علا صياحنا، احتضنتني كميليا. سار الباص في طرق فرعية من دون المرور على القدس، حتى وصلنا بيت كميليا وشيري. وصدِّق أو لا تصدق: أنا رندا شعث في رام الله.

* * *

لحظة وصولي، اتصلت لأُطمئن بابا في القاهرة. كان في قمة الانفعال، بدأ في البكاء:

. لازم تروحي بيتنا في يافا. صوَّريلي بيتنا في يافا.

لم يصدق من قبل أنني سأنجح. بدأ يصف لي بيته والطريق إليه بالتفصيل. كان قد ترك يافا ولم يبلغ الحادية عشرة. وعدته بأن أفعل.

ـ يا أهالي رام الله ممنوع التجول... ممنوع التجول. كل من يخالف القانون يعاقب بشدة. ممنوع التجول.

على هذه الترنيمة الصباحية استيقظتُ فجر أول أيامي في رام الله. بقينا في البيت، نشرنا الغسيل ونظفنا الغرفتين والواجهة، قضينا بقية النهار تحت الشمس بين حديث وصمت. استمعنا إلى فيروز وأعطتني كميليا درسًا في الموسيقى. في المساء بدأت احتفالات ذكرى إقامة دولة فلسطين التي أعلنها ياسر عرفات في ١٥ نوفمبر ١٩٨٨ في العاصمة الجزائرية. سكان رام الله كلهم في الشرفات وفوق الأسطح، صفير وزغاريد تنطلق في الظلام، تليها سيارات الجيش تحوم في الشوارع عبثًا للبحث عن مصدر الصوت. بعد مرورهم يعود الصفير، فيطلقون الرصاص في الهواء للتخويف والتشويش. من حين إلى آخر أيضًا يُطبل أحدهم إيقاع العرس أو يُلقي آخَر بالصواريخ النارية. في الثامنة مساء (في رام

t.me/qurssan

الله وكأنها الواحدة بعد منتصف الليل) تسللنا إلى منزل «كريس» و«كريستينا» والطفلة الجميلة تمارا لنحتفل نحن أيضًا.

* * *

أمشي فوق السور العتيق وكأنني عصفورة طائرة فوق القباب والمآذن وأبراج الأجراس. أكاد ألمس قبة الصخرة الذهبية، أقرص نفسي عشرات المرات، غير مصدقة أنني هنا. يشير زياد، ابن صديقتنا فريال، إلى موقع مدرسة «تيرا سانتا» للرهبان الفرنسيسكان في القدس. درس بها جدي علي في المرحلة الثانوية قبل أن يتخرج معلمًا في الجامعة الأمريكية في بيروت. صار ناظرًا، وتنقل في مدن فلسطينية كثيرة: صفد حيث ولد أبي، الخليل حيث ولدت عماتي، ويافا حيث ولد عمي، المحطة الأخيرة قبل رحيلهم إلى الإسكندرية. أخطو كل خطوة فوق السور، أحمل معي في قلبي حكايات جدتي وأبي. سكنَت قلبي خريطة، وفي خيالي وصف تفصيلي للبيوت والشجر والطعام. عبر السنين جمعت كل القصص التي يمكن جمعها، كلما قابلت أحدًا من هناك طلبت منه أن يحكي وأن يصف. سمعت مئات القصص التي صارت جزءًا من ذاكرتي. اكتسبت خريطتي تفاصيل وروائح وملمسًا. نكمل الرحلة في الشوارع العتيقة داخل المدينة، الأسوار رحم حنون. نتناول الإفطار التقليدي «مطبق» عند «زلاطيمو». نمشي في خان الزيت.

* * *

أتذكر رامي. عشرون سنة تقريبًا مرت على تخرجي في الجامعة الأمريكية في القاهرة. بعد معاهدة «كامب ديفيد» التحق بها عدد صغير من الطلبة الفلسطينيين؛ ثلاث طالبات من غزة، طالب من نابلس وثلاثة من القدس. تجمعنا في «نادي أصدقاء القدس»، نقيم معرضًا أو ندعو لمحاضرة تشرح لباقي الطلبة عدالة القضية. كان رامي من بينهم. بدأنا بنقاشات سياسية حادة قلل تدريجيًا من حدتها العمل المشترك، وقبل أن يعود إلى القدس صرنا أصدقاء. حكى لي رامي عن دكان أبيه في البلد القديم، يجمع

t.me/qurssan

الصور والمخطوطات القديمة ويعيد طباعتها للبيع. وصف لي القدس ومكان الدكان قرب باب الخليل. سنوات أحلم بالزيارة.

أحمل الكاميرا ولا أقربها من وجهي، أرفض أن أحجب أنملة من رؤيتي. تتسع مقلتاي وحواسي لاستيعاب كل معلومة تقابلني، أتحسس حجارة البيوت وأنا أمُر بها، أريد لملمسها أن يُحفر في ذاكرتي. نكمل الحديث ونحن نمشي في طريق الآلام. يشيرون إلى بيوتٍ قديمة وهم يحكون لي تاريخها وقصص من عاشوا بها. تعرَّج بنا الدرب حتى اقتربنا من باب الخليل. ألقى يعقوب بنكتة. لم أسمعها. فجأةً جفلت وتسمرت مكاني، تلفتُ يمينًا ويسارًا. قلت لهم:

. هنا... دكان أبو رامي.

تركتهم وابتعدت. أكملت طريقي كالمسحورة. تبعوني. سرت بخطوات واثقة واتجهت يمينًا، وصلت وحدي إلى الدكان العتيق، كان رامي واقفًا بالباب.

* * *

بعد أسبوع من وصولي إلى فلسطين صار باستطاعتي الذهاب وحدي إلى القدس. وصلت أخيرًا أمام البوابة الضخمة العريقة. جلستُ على الدرجات الحجرية ألتقط أنفاسي. استوقفَنا الجيش في الطريق من رام الله إلى القدس ثلاث مرات؛ في المرة الأولى طلبوا من سائق التاكسي بطاقة هويته، في المرة الثانية طلبوا بطاقاتنا جميعًا، في المرة الأخيرة أمروا السائق أن يقف على جانب الطريق، ثم أن يفتح صندوق السيارة لتفتيشه. تمتم الرجل بجانب السائق:

. الله يهدهم.

لعنة الله عليكم، لقد تأخرت عن موعدي. هل ينتظرني؟

تلفتُ حولي أستطلع الدرجات الواسعة عن يميني، وعن شمالي. اصطدمت عيناي بعين الجندي الوقح، الذي يقف مع زميليه أسفل

t.me/qurssan

الدرجات عن يمين البوابة. حدجني بنظرة مهددة. تبًّا لك، فأنا لا أخاف منك ولا من لباسك المدجج بالسلاح. ومع ذلك تمنيت ألا يأتي ليمارس سلطاته عليَّ.

هل تأخرتُ فذهب؟ نظرتُ إلى الساعة في معصمي. تقترب عقاربها من العاشرة والنصف. موعدي مع زياد كان في التاسعة. لقد خرجتُ من الدار مبكرة، ركضت مسرعة إلى موقف سيارات التاكسي أمام الصيدلية، كانت السيارة الأولى في الصف قد رحلت للتو، سعدت، فذلك يتيح لي أن أجلس في مكاني المفضل بجانب الشباك خلف السائق. انتظرتُ مدة حتى امتلأت السيارة بركابها السبعة، مددت يدي لاشعوريًّا إلى الخلف لأجمع النقود من الركاب.

. تفضلي خالتي هاي باقي المصاري.

تلفتُّ حولي مرةً أخرى، لا، إنه ليس جالسًا على إحدى الدرجات. لا بد أنه يتابعني كعادته مبتسمًا وأنا أتلفت حائرة باحثة عنه. لكنه هذه المرة تأخر كثيرًا عن مفاجأتي.

بقيت متسمرة أمام البوابة التاريخية. لفحتني حرارة الشمس ولهيب إحساسي، تلاشت من حولي الأشياء والناس والزمن وجنود الاحتلال.

أسندت رأسي إلى ذراعي، أغمضت عينيَّ، متأكدة أنه لن يأتي.

أحسست بكفه الدافئة تربت على كتفي.

* * *

تأخذني كميليا إلى يافا. شارع سوق ممتد يبيع الأثاث والسجاد وأواني الطعام القديمة، أتنقل بينها محاولةً تخمين أي قطعة كانت لجدتي. أحمل بكفي مرآة بيضاوية صغيرة بإطار معدني مزخرف، أرتجف وأطلب من صديقتي البدء في البحث عن بيت أبي. وصف لي الطريق في التلفون بتفاصيل منعطفات شوارع حي النزهة، بدءًا من المدرسة العامرية وبيت الخالدي. نسي أن

t.me/qurssan

يقول لي إن هناك غيمة بيضاء تظلل شجرة البرتقال. في المساء أتصل به، يطلب مني وصف رحلتي بحذافيرها، أحكي ولا أسمع ردًّا سوى أنفاسه المتقطعة. فجأة يصيح بأنني أخطأت لأني اتجهت في آخر الطريق يسارًا بدلًا من اليمين وبهذا وصلت إلى بيت خالته أم شكري وليس إلى بيته. أعده بالذهاب مرةً أخرى.

t.me/qurssan

جلسن في صمت أمام منظر النيل الممتد أمام أسطح جاردن سيتي. انتظرنني ساعات أمام الشباك العريض في الصالون، يخفين رهبة أربعين عامًا من الغياب، ولهفتها. كنت في معمل التحميض أحضر الصور التي التقطتها في فلسطين، ووعدتهن بنسخة من صور بيوتهن في يافا. جدتي سميحة وأختاها أم شكري وأم عصام البيروتيات تزوجن فلسطينيين وسكنَّ يافا سنوات قبل نكبتها وتهجيرهم.

كيس كبير حملته وبدأت البحث فيه عن صور يافا. تخاطفن الصور من يديَّ قبل أن أعثر على صور البيت. قبَّلن كل صورة من وجهيها كأنها نعمة أو قطعة خبز، ثم بدأن في الفرجة والتعليق. طلبت أم شكري عودي. بعد ثمانين عامًا كان بالكاد في استطاعتها السمع، لكنْ حين حملت العود دوزنت أوتاره باحتراف، وبدأت في العزف بيدين قويتين. بدأن في الغناء، اختفى الشيب وحلت محله ثلاث صبايا يغنين للحب. تذكر كل واحدة أغنية، هللن ضاحكات وهن يرددن أغاني عمر الزعني، علا شدوهن:

ليلة عُرسي

خمسين تاكسي

t.me/qurssan

يقول لي إن هناك غيمة بيضاء تظلل شجرة البرتقال. في المساء أتصل به، يطلب مني وصف رحلتي بحذافيرها، أحكي ولا أسمع ردًا سوى أنفاسه المتقطعة. فجأة يصيح بأنني أخطأت لأني اتجهت في آخر الطريق يسارًا بدلًا من اليمين وبهذا وصلت إلى بيت خالته أم شكري وليس إلى بيته. أعده بالذهاب مرةً أخرى.

t.me/qurssan

كانت جدتي سميحة في الثانية والعشرين. عانس في عرف ذلك الزمن. في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الفائت. كانت تزور أختيها الأكبر منها والمتزوجتين في يافا، ربما فكر والداها في بيروت أنها فرصة كي يتقدم لها عريس هي أيضًا هناك. جدي من الفلسطينيين القلائل الذين درسوا في الجامعة الأمريكية في بيروت. سمعت أمه أن عروسًا بيروتية قد وصلت، فأشارت عليه بخطبتها. اشترط شرطًا وحيدًا: أن يختلي بها للحديث معها مرة قبل القرار. تركهما أهل العروس في غرفة صالون منفصلة. وإن بقي الباب مفتوحًا. سؤاله الأول كان عن عمرها، فقد قالوا له إنها في السابعة عشرة. ردت عليه بالنفي، وأكدت له أنها في الثانية والعشرين. أعجبته صراحتها وتمت الخطبة.

سمحوا لهما بتبادل الخطابات في الأشهر التالية. أقيم العرس في بيروت، وعادوا منها بالقطار. ودَّعا المدعوين من أهل العريس في القدس، وبعدها في غزة، وانطلقا بالقطار نفسه إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل. وصلاها عقب تتويج الملك فاروق. العروس خجلى من الرجل الذي تختلي به لأول مرة بعد لقاء الصالون.

في أغسطس ١٩٣٧، كان الجو رطبًا حارًّا، احتاجت إلى شراء حذاء مريح بدلًا من أحذية الجهاز ذات الكعوب العالية للمشي في شوارع الإسكندرية، لكنها استحت أن تطلب منه. لكنْ في جلسة هادئة بالقرب من البحر في مقهى «الشاطبي»، كتبت له على وريقة صغيرة السؤال الأهم الذي يشغلها: ما عدد الأطفال الذين يريد إنجابهم وتربيتهم؟ جاءت إجابته مروعة: لا يريد أطفالًا. كتب مفسرًا أنه خاف. بعد إعلان الإضراب العام الكبير وانطلاق ثورة فلسطين الكبرى العام السابق، والمعارك العنيفة بين مقاتلي الثورة والجيش البريطاني والعصابات الصهيونية. من أن يضيع الوطن وأن يضطروا إلى «الرحيل إلى الصحراء». لا يريد أبناء بلا وطن. في خلال عام استطاعت إقناعه، وعبر الأعوام رزقا خمسة أولاد. أكبرهم أبي، ولد في صفد.

t.me/qurssan

سمح لي أبي بالذهاب معه إلى مدريد. أول مرة يصطحبني في رحلة عمل كمساعِدة له. بابا شديد الانفعال والترقب للمؤتمر المنتظر، وهو قلق، إذ سيرأس فريق العمل السري الممنوع من الحضور رسميًا. رأى هو ورفاقه من منظمة التحرير الفلسطينية بصيص أمل، فبعد الانتفاضة في فلسطين بدأت محاولة جديدة من المجتمع الدولي لإحياء عملية السلام الإسرائيلية-الفلسطينية من خلال المفاوضات. أعلن «بوش» اعتزامه عقد مؤتمر للسلام الدولي شمل إسرائيل وفلسطين والبلدان العربية بما فيها الأردن ولبنان وسوريا. دُعي وفد فلسطيني رسمي من داخل فلسطين بقيادة حيدر عبد الشافي.

حجز سفير فلسطين للفريق المخفي فندقًا صغيرًا قريبًا من بيته، وكانت الاجتماعات تتم في بدروم الفندق في جو من الترقب والتوتر. أرتب الأوراق لأبي، يعطيني مسؤولية تصويرها وإدخالها إلى الملفات. ألهي نفسي بتصوير الاجتماعات، لكن مهمتي الأولى كانت الاهتمام بأبي والتسرية عنه.

من خوفي قررت النوم في سرير بابا احتذاءً بعلي بن أبي طالب، وكنت أتأكد بنفسي من إغلاق الغرفة بالقفل. حتى جاءت ليلة سمعت من يطرق باب غرفتنا برفق، وصوتًا يأمرنا بأن نستعد خلال ربع ساعة. ارتديت ملابسي على عجل وساعدت أبي في ارتداء ملابسه والنوم ما زال متمكنًا منه. كانت الثالثة بعد

t.me/qurssan

منتصف الليل، نقلنا أتوبيس من الفندق إلى المطار، ركبنا طائرة من دون أوراق ومن دون المرور على مسؤولين. في الطائرة، التقى الوفدان الرسمي والسري لأول مرة في رحلة خاطفة إلى الجزائر، للاجتماع بأبو عمار الذي مُنع من الحضور. كان «دعاة السلام» يريدون إقصاءه وإقصاء منظمة التحرير الفلسطينية. تحججوا بدعمه للرئيس العراقي صدام حسين خلال حرب الخليج. في تلك الليلة كان التنسيق الأخير قبل المؤتمر. عبثًا حاولتُ متابعة الحوار الدائر، لكن النوم غلبني. عدنا إلى غرفتنا في الفندق قبل السابعة صباحًا بقليل.

كلمة فلسطين كانت في اليوم الثاني من المؤتمر، بعد الافتتاح بكلمة من رئيس وزراء إسبانيا وكلمة الرئيس الأمريكي «جورج بوش» والرئيس السوفيتي «ميخائيل جورباتشوف». أعد الخطاب أكثر من شخص، كان جهاز الفاكس ينقل أوراقًا كثيرة من أماكن مختلفة للمراجعة، وكان على أبي تسليم المسودة الأخيرة باليد قبل سويعات من إلقائها. وكل ذلك يتم في السر ومن دون لفت الأنظار لوجود فريق مفاوض من المنظمة. كانت الخطة أن يجلس أبي وحده في بار مظلم صغير أمام الفندق الكبير، ويأتي من يأخذ منه أوراق النص الأخيرة. تفاءل أبي لأنها كانت شابة في مثل عمري واسمها رندا. لاحقًا، في مفاوضات واشنطن حيث عملت رسميًا كمساعِدة لأبي، عملتُ ورندا في المكتب نفسه.

أُلقيت في اليوم الثاني كلمات كلٌّ من «شامير» رئيس وزراء إسرائيل، وأعقبه رئيس الوفد الأردني، ثم فارس بويز رئيس الوفد اللبناني، وحيدر عبد الشافي. تابع الوفد السري الخطاب من شاشة التلفزيون في بيت السفير. استهل حيدر عبد الشافي كلمته بتوجيه تحية إكبار واعتزاز لأبناء الشعب الفلسطيني الذين ما زالوا يناضلون من أجل الحرية والاستقلال. ثم قال:

. نحن شعب فلسطين نقف أمامكم بكامل آمالنا وعزتنا وتوقعاتنا، فطالما حملنا حنينًا للسلام وحلم العدالة والحرية. لفترة طويلة من الزمن، لم يُصغِ أحد للشعب الفلسطيني، ولقد حان الوقت لطرح قضيتنا ولنقدم الشهادة كدعاة للحقيقة ولا نقف أمامكم

t.me/qurssan

كمتوسلين بل كحملة مشعل للحرية. نحن نتحدث عن إيمان كامل بعدالة قضيتنا وصحة تاريخنا وعمق التزاماتنا، وهنا تكمن قوة الشعب الفلسطيني. فقد تجاوزنا جدران الخوف والتردد، ونود أن نرفع صوتنا بجسارة وأمانة يستحقها تاريخنا ومسيرتنا... سادتي في الشرق الأوسط هناك دولة مفقودة وهي دولة فلسطين، ينبغي أن تولد تلك الدولة على أرض فلسطين.

حين أنهى خطابه وقف الرجال في الصالون أمام التلفزيون يصفقون تصفيقًا حادًّا لربع ساعة.

t.me/qurssan

ودَّع بيتنا سكانه واحدًا تلو الآخر. تزوج علي ودينا وسافرا إلى هولندا للدراسات العليا، تزوج رامي ونهال وسافرا إلى لندن أيضًا للدراسة. أبي عاد إلى غزة، وتزوج هناك بعد عشر سنوات من موت أمي. كان يأنس بنا وبأصدقائه وعمله وزيارة حفلات الأوبرا والسينما في القاهرة. لكن وحدته صارت غير محتملة في غزة. سافرتُ أنا يومين بعد حفلات عرسه المتعددة، حيث أقام حفل استقبال رسمي في «بيت الشرق» وحفل زفاف في القدس وآخرَين في غزة والقاهرة.

استيقظت صباح يوم، ووجدتُني لأول مرة مسؤولة عن نفسي فقط. قبلتُ دعوة الإقامة الفنية في سويسرا.

* * *

تقع عيناي على وجه «فيرنير» مبتسمًا. صديقي السويسري المقيم بالقاهرة خطط رحلته السنوية إلى سويسرا ليكون في استقبالي في المطار، ويصحبني في رحلة القطار إلى بوزفيل، القرية الصغيرة التي سأمكث فيها ستة أشهر، على بعد ساعة من مدينة زيورخ، بدعوة من المؤسسة الثقافية السويسرية «بروهلفيسيا». أثناء الرحلة ذكر لي المحطات المؤدية إلى محافظة آراو، ولفت

t.me/qurssan

ينبهني أن كل الدكاكين مغلقة يوم الأحد، حتى لا يفوتني شراء الحليب والخبز والقهوة قبل عطلة نهاية الأسبوع. كتب لي رقم تلفون صديقه المقرب، وعاد إلى القاهرة وهو مطمئن أن هناك من أتصل به إن احتجت إلى أي مساعدة.

نتشارك في البيت الذي سأقيم فيه أنا وفنانة تشكيلية من موسكو ونحات من ليتوانيا. لكل منا استوديو للعمل وغرفة نوم خاصَّان به، وغرفة الجلوس والحمام والمطبخ مشتركة. في الدور الثاني غرفتا نوم، كانت من نصيبي الأوسع منهما، بجانب التلفون الوحيد في المنزل، الذي يعمل بالقطع المعدنية. أزيِّن حائط غرفتي الجديدة بالصور والملصقات، فيضيئها نور الشمس الآتي من الحقول المحيطة. لا صوت يصلني سوى صوت أجراس البقر صباحًا عند ذهابها إلى المراعي، ومساءً عند عودتها.

في أيام معدودة صرنا، الضيوف الثلاثة، أسرة. نذهب إلى السوق معًا ونطبخ مأكولات من بلادنا ونتشاركها. كانا من المدخنين ويدعواني لأدخن معهما بعد كل وجبة، استحييت واشتريت علبة للمرة الثانية في سنواتي الثلاثين لأدخن معهما، وأدمنت التدخين. نسهر أمام المحطة التلفزيونية الوحيدة المتاحة، نبتكر سيناريوهات جديدة للمسلسلات والأفلام الناطقة بالألمانية، فلا أحد منا يفهمها. في ليلة غامرنا بزيارة الحانة الوحيدة في البلدة، بالقرب من محطة القطار. ما إن فتحنا الباب حتى انقلب اللغط إلى صمتٍ تام، واتجهت كل الأنظار إلينا كأننا كائنات فضائية. كنا الثلاثة الوحيدين في المنطقة كلها الذين لم يولدوا هناك. أغلقنا الباب بسرعة من دون أن ندخل، وعدنا إلى بيتنا ضاحكين ساخرين من المفاجأة العنصرية.

بعد أسبوعين، بدأتُ في زيارة مقرات الجرائد المحلية، أحمل لها مجموعة صوري من مصر وفلسطين. حصلت بعدها على تكليف من جريدة طليعية لتصوير بعض المواضيع في المحافظة التي سكنتها، ولاحقًا على اتفاق مع أكبر جريدة ناطقة بالألمانية في سويسرا، للعمل على قصتين مصورتين، إحداهما في مصر والثانية في اليمن، بعد انتهاء مدة إقامتي. تعرفت إلى مجموعة

t.me/qurssan

مصورين كونوا تعاونية للتصوير، ساعدوني في إنشاء معمل لتحميض الصور وطبعها في الاستوديو المخصص لي في البيت القروي. دعوني إلى بيوتهم وصرنا أصدقاء. بعد شهر من إقامتي في سويسرا عرضوا عليَّ المبيت عندهم في أي وقت يحلو لي، وصرت أحمل معي ثلاثة مفاتيح لبيوت في مدينة زيورخ.

في فترة وجيزة، وعيتُ أن لقب عائلتي، ومنطقة سكني، والمؤسسة التي أعمل فيها لا تؤثر سلبًا ولا إيجابًا على أحد هنا. تعرفتُ إلى أشخاص أُعجبتُ بهم ورحبوا بي، أحبوني وكنت أظن وقتها أني شخص كئيب وحزين. سعدت أن صوري قادرة على إقناع المحررين في الجرائد السويسرية الناطقة بالألمانية بطلب المزيد. أنام وأصحو شخصًا آخر، أكثر إيجابية ومحبة. أيقظت قوة بداخلي لم أكن قد اكتشفتها من قبل.

t.me/qurssan

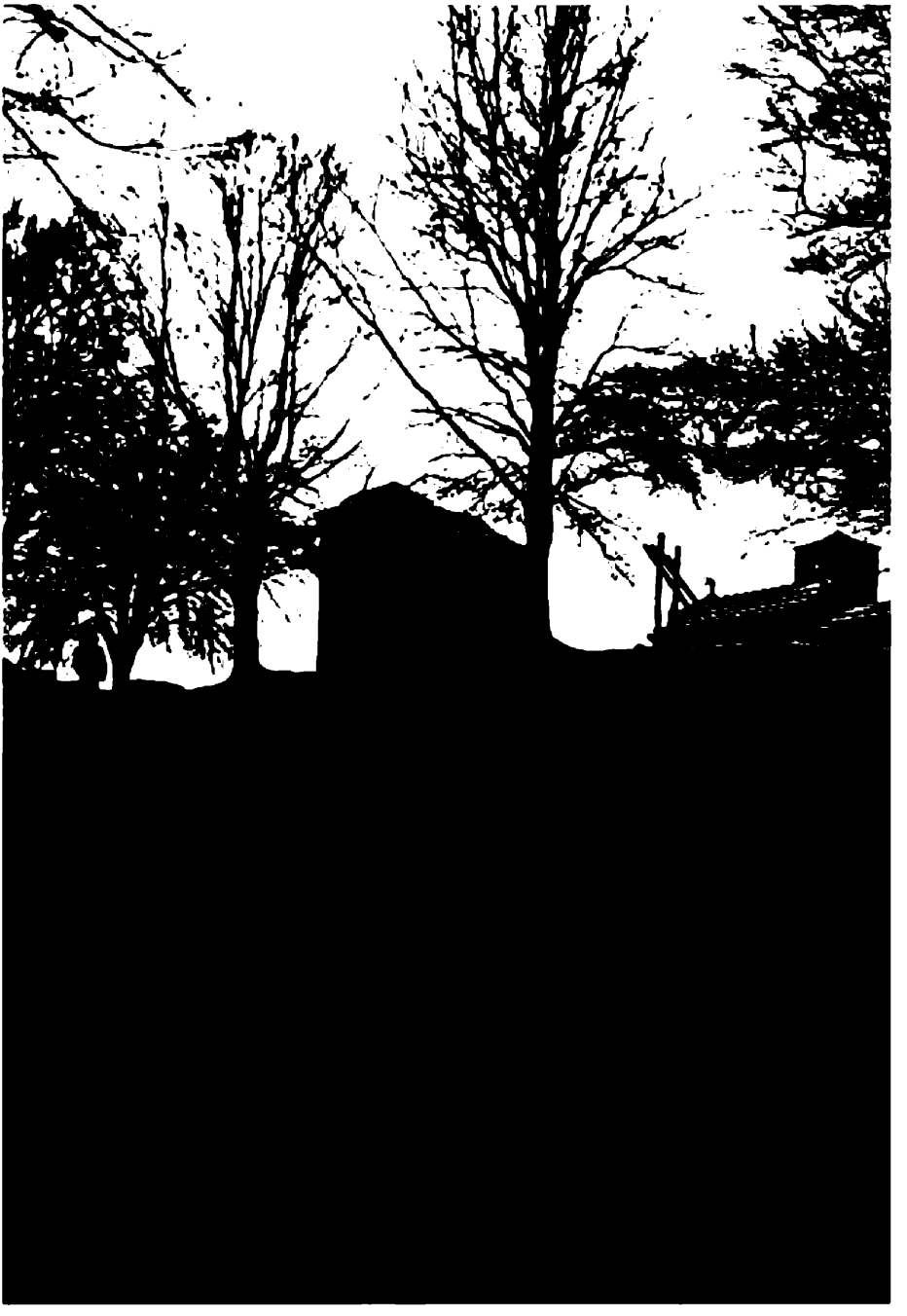

بيت المندرة مواسم. موسم الكسكسي، فركه وتبخيره وتغطيته. مقترنًا بالأعياد والتجمعات العائلية. ليمتلئ البيت بقماش أبيض نظيف لتبخير حباته. موسم الكحل من لبان الذكر وتعبئته في أنابيب دواء صغيرة بعد تنظيف المطبخ من الهباب الأسود. موسم صنع المربَّيات حسب ظهور فاكهتها ونضجها بالحديقة: اللارنج والجوافة والعنب والبلح. موسم ورق العنب وجمعه في بداية الصيف وتخليله ليكون متاحًا طول الشتاء. كل ثلاثة أشهر يتجدد موسم الليف ويكون لكل فرد منا ليفة للحمام مبطنة

t.me/qurssan

وربطات الشعر المطرزة. أما البلح فله مواسم كثيرة، تدكيره في شهر مارس وأحيانًا يمتد إلى أبريل، وفي أغسطس جمعه وتقسيمه: بلح الزغلول الممتاز للأكل، والحياني للمربى، وبنت عيشة للتجفيف والعجوة والتسكير، والبلح السماني يترك لأكله رطبًا.

باعتباري الحفيدة الأولى، وابنة صفاء البكر. التي ساعدت جدتي في رعاية بقية الأبناء حين مات جدي شابًّا. لقيتُ دائمًا معاملة مميزة: كُحلي يعبَّأ في مكحلة نحاسية منقوشة، ولي ثلاث ليفات، واحدة طويلة لدعك الظهر واثنتان صغيرتان، ومربى البلح محشو باللوز (بينما هو محشو بالفول السوداني لباقي البرطمانات)، وصفيحة كعك في العيد عجميتها مخلوطة بـ«عين الجمل».

يبدأ موسم الكعك في منتصف شهر رمضان: كعك سادة وكعك بالعجمية وقرص العجوة يحبه خالي حسين هو وبسكوت النشادر. ورشة عمل عظيمة في بيت أم صفاء تدوم حتى ليلة العيد، الصواني في ذهاب وإياب من الفرن، يعمل الجميع تحت إدارة جدتي وخالاتي والحفيدات الكبيرات وأحيانًا بنات الجيران. يُقسَّم العمل: العجين، العجمية، العجوة، الحشو، النقش، رش السكر. تزدحم خزائن المطبخ بصفائح «النيدو» الممتلئة، عبثًا تحاول تيتة تخبئتها من أيادينا الصغيرة ومنعنا من التهامها قبل العيد. يعج البيت بمفترِشات الأرض والجالسات حول طاولة الطعام الكبيرة، الكل يعمل في تركيز وصمت. تقتصر مساعدتي على مرحلة النقش، وإن لم أنَل رضا جدتي قَطُّ. فأنا أنقش الكعكات كما يروق لي، نقوشًا سريالية وتجريدية. تُعنفني وتعيد عجنها ونقشها بالطريقة التقليدية، دائرية بخطوط متكررة متقاربة، صائحة: «كده ما ينفعش، مش هيمسك فيه السكر». كل عيد تشكو جدتي للجميع: «الكحك ما طلعش حلو السنة دي» لتسمع الرد المحبب لها أنه أحلى كعك.

t.me/qurssan

أثناء الإجازة في المندرة، تدعونا خالتي هناء أحيانًا لقضاء ليلة في بيتها في جليم. في غرفة خالد وعمرو ما كان يهيأ لي أنهما أكبر سريرين في العالم؛ من صنع شركة «إيديال»، معدنيان لونهما أزرق سماوي، ننام كلنا عليهما: أنا وأمي وعلي وخالد وعمرو. نتنافس أنا وخالد على قراءة الكتب ومن يُنهي روايته قبل الثاني. مرة لم يتوفر لنا غير نسخة واحدة من رواية «ليل له آخر» ليوسف السباعي، وكانت طويلة، فمزقنا الكتاب إلى صفحات حتى يتسنى لنا القراءة في الوقت نفسه. أما عمرو، المغامر الجريء الذي تركناه يكسر قفل الغرفة المخيفة أسفل بيت المندرة وحده، فكان يحب السهر مثلي. في بيت خالتي، بعد أن ينتهي فيلم السهرة وبعد أن نتأكد من نوم الجميع، نتسحَّب خارج الغرفة، نفتح شباك الصالة المطل على المنور، نجلس على حافته، وعلى النور الضعيف نلعب كوتشينة. لم يكتشف أحد مغامرتنا الليلية حتى حكينا عنها لاحقًا لأولاده.

في بيت خالتي، كنت أحب صورة السيدة العارية المعلقة فوق سريرها، ودولاب اللعب عند باب البيت، والفونوغراف الذي اشتراه عمو محمود، زوجها، والاستماع إلى أسطوانات الأغاني القديمة. في مرحلة أخرى اكتشفت أهمية زفة الفرح وقوتها. خرجت كل عرائس العائلة إلى حياتهن الجديدة من بيت خالتي. في غرفتها «شيفونيرة» ذات مرآة كبيرة، بعرض نصف الحائط، مهمة للبس فستان الفرح والتأكد من شكل الطرحة الطويلة وجمال النظرة الأخيرة قبل الانتقال إلى حياة جديدة. صدى صوت الطبل في الأدوار الأربعة رنَّ في أذنيَّ طويلًا وأنا أتخيل نفسي في دور البطولة التي تكتمل في حفل زفاف في حديقة بيت تيتة.

t.me/qurssan

أرسلتني جريدة «الأهرام ويكلي» . التي بدأتُ العمل في طاقمها بعد استقالتي من دار الفتى العربي في عام ١٩٩٤ . لتصوير أول دفعة للشرطة الفلسطينية عائدة من مصر إلى غزة، في مقر الشؤون المعنوية في مصر الجديدة. في ذلك المبنى الجميل الذي كان قصرًا ملكيًا من قبل، اصطف الجنود، مبتهجين بالعودة إلى فلسطين. وغطى الحدث مئات المصورين والصحفيين المصريين والأجانب. وكان يومها يوم خميس، وهو الموعد الأسبوعي لصدور الجريدة. وفي عدد ذلك اليوم، تصدرت الصفحةَ الأولى ثمانيةُ أعمدة، مع صورة مرافقة من تصويري: في مؤتمر القاهرة الأسبوع السابق، لحظة الفوضى، وبينما المندوب الروسي يخطب، في الجانب الآخر للمنصة ياسر عرفات يرفض التوقيع على الوثيقة، وحسني مبارك وأبي بجانبه يحاولان إقناعه، وفي منتصف المسرح المندوب الأمريكي وعمرو موسى يحاولان أن يفهما ما يحدث. أثناء تصويري خبط على كتفي مصور أجنبي برفق، وقال لي:

. حجم عظيم لصورة عظيمة.

تساءلتُ من يكون. علمت لاحقًا أن اسمه «توماس هارتويل»، وأنه مصور صحفي أمريكي يقيم ويعمل في القاهرة منذ سنوات.

حين طلب مني «توم» الزواج بعد لقائنا الأول هذا بسنة، ارتبكت. كتالوج الزواج عندي لم يكن فيه خانة لـ«أعجمي»! ولا لمن لا يسمع أم كلثوم والشيخ إمام. «توم» يقيم في مصر منذ أن أنهى دراسته الجامعية، يتحدث العربية ويحمل فلسطين في قلبه، يحب فيروز ويحبني. تعرف إلى أصدقائي وأخوَيَّ. اعتنق الإسلام قبل أن يلتقي بأبي، واكتسب محبة تيتة سميحة ولاعبها طاولة كما تعشق وسمح لها بذكاء أن تغلبه كل مرة، كما ذهب لزيارة تيتة فاطمة في الإسكندرية. في أحد الأيام، صحوت بإحساس أنه «شاريني وشاري أهلي». فسافرتُ إلى سويسرا حاملة معي عرضه. اقتنعت هناك بأنني صرت مكتملة، ووافقت

t.me/qurssan

أن أكمل حياتي مع شريك أحبه.

تزوج أمي وأبي، وكل من أخوَيَّ، في سن الواحدة والعشرين. في عرف عائلتي، تزوجت أنا متأخرة؛ كنت بلغت الرابعة والثلاثين، وأمي رحلت من سنوات بعيدة. تبنتني أمهات العائلة، وقد وضعت كل منهن لنفسها دورًا في التحضير للعرس: عمتي نهى أرسلت، على الرغم من احتجاجاتي، أعدادًا مهولة من قمصان النوم الحريرية المثيرة؛ خالتي رواء قامت بتنجيد المراتب والمخدات في الإسكندرية وأرسلتها إلى منزلي الجديد بشاحنة نقل صغيرة، ولم تنسَ أن تنجد لي لحافًا مثل الذي كنا ندير معارك الزغزغة تحته في الغرفة البحرية في بيت تيتة. عصمت، زوجة خالي، قضت أيامًا معي تخيط لي الملاءات وأغطية المخدات، وخالتي حسناء تولت كعكة العرس.

ابنة عمتي سمر جاءت أيضًا لمساعدتي في إخراج طقم الأطباق الصيني المهول، والمُخبأ في صناديق من سنوات، وغسلِه. حفظ قصة الطقم الصيني أغلب من أكل في بيتنا: اشتراه جدي علي من المجر عام ١٩٥٨. كان قد ذهب هناك في رحلة علاج، وزار مصنع الخزف المشهور، وانبهر بالصناعة والرسومات، وعاد بالطقم وبحكمة تتوارثها العائلة. قال له مدير المصنع إن «العبقرية لا تأتي من الرأس بل من...»، وأشار إلى مؤخرته، قاصدًا أن الجلوس مطولًا والتعمق في فكرة هو ما يتيح للإنسان التجلي. صممت جدتي لطقم الأطباق خزانة من الخشب الزان واجهتها زجاجية، ليوضع في غرفة السفرة مرئيًا يظهر للضيوف، ويكون باستطاعتها التباهي به. ظهرت بعض قطعه الفاخرة في الخلفية في صور حفل كتب كتاب أبوَيَّ. حين أتممت الرابعة من عمري، أهدتني جدتي سميحة الطقم بخزانته، التي انتقلت إلى منزلنا وبقيت مقفلة من دون استخدام لأن أمي كانت تملك طقمها الخاص. ظل الطقم حديث الضيوف عندما يأتون أول مرة لزيارتنا، إلى أن كبر أخواي علي ورامي، وصارت غرفة السفرة ملعبًا لكرة القدم. كسرا الخزانة الزجاجية مرتين، وأصلحتها أمي في المرتين؛ فقررت تعبئة الطقم في صناديق، محاولةً إنقاذ

t.me/qurssan

قِطَعه حتى يصير لي بيت مستقل.

أما فستاني فأردته فريدًا، يجمع بين رموزي الكثيرة: مصري، وفلسطيني، وأمريكي، ومعاصر. قررت أن يكون القماش من حرير أخميم، وأن يُطرَّز بالنقوش الفلسطينية، وأن يكون اللون الأزرق حاضرًا، وأن يكون تصميم الفستان معاصرًا. بعد أن اشتريت القماش، ذهبت به إلى مقر اتحاد المرأة الفلسطينية، لكني لم أنجح في إقناعهن بفكرتي. خطرت لي فكرة أن تنفذه خالتي زكاء، وكانت مشهورة بإجادتها الخياطة، وأن تطرزه عمتي ميسون. ترددت الاثنتان أمام المسؤولية، وخافتا من التجربة، خصوصًا أن خالتي تقيم في الإسكندرية وعمتي في القاهرة، لكني نجحت في إقناعهما. تطرز عمتي قطعة في القاهرة، أذهب بها إلى الإسكندرية لتقصها وتخيطها خالتي في المندرة. بعد ثلاث رحلات مكوكية، ذهبتُ إلى الإسكندرية أسبوعًا قبل العرس للبروفة الأخيرة، وفي حديقة المندرة كان حفلًا راقصًا كالعرس احتفالًا بانتهاء الفستان.

* * *

خالتي زكاء متمردة العائلة، سمعنا قصص مشاكساتها الدائمة في المدرسة بسبب إصرارها على ارتداء ملابس مخالفة للزي الموحد. ذات يوم، وكانت ترتدي معطفها البمبي الذي تحبه، عوقبت للمرة العاشرة بإقصائها عن طابور الصباح، فخلعت المعطف أمام الجميع وتركته على الأرض واتجهت إلى باب المدرسة عائدة إلى البيت. اضطرت الناظرة إلى أن تلحق بها وترجوها أن تعيد ارتداءه حتى لا تموت من البرد. طلبت زكاء منها العودة إلى الفصل بالمعطف البمبي. ولم تعد أي معلمة إلى ذكر ملابسها المخالِفة بعد ذلك. زكاء أول مهندسة زراعية لمشروع «مديرية التحرير»، أحد المشروعات الزراعية الطموح في صحراء البحيرة. تصدَّرت صورتها، وهي تحمل الفأس، أغلفة مجلات أسبوعية. وقتها أحبت عبد الناصر، والمهندس الزراعي محمد عيَّاد، زميلها في المشروع. ولاؤها لمحبة الاثنين باقٍ حتى اليوم. يعرف الأحفاد طرائف فترة خطوبتهما، ويهددون بالتماثل بها عند

t.me/qurssan

الخلاف مع الأزواج. كانت سريعة الانفعال. بعد كل مشادة تخلع دبلتها الذهبية وتقذف بها في جبل المندرة الرملي. ذات مرة دقَّت الدبلة بيد الهون وكسرتها، ضاعت الدبلة مرات عديدة وعوضها بغيرها.

مات عبد الناصر ومات المشروع بعده ببطء. في أواخر السبعينيات، حولت زكاء عملها لتصبح مشرفة على حدائق المنتزه لفترة وجيزة، إلى أن تركت العمل تمامًا. كانت آخر خالة تقرر ارتداء الحجاب: «كنت الوحيدة في المندرة اللي شعرها باين، حسيت إني ماشية عريانة في الشارع».

حولت خالتي الفنانة طاقتها المهدورة، بعد استقالتها من الوظيفة، إلى الخياطة والرسم: ترسم وتطرز على المخدات والطرح والقمصان لأفراد العائلة. أهدت الكثير لعرائس العائلة، وخاطت بالكامل فستان عرسي. ثم قررت تنويع مهاراتها، وذهبت مع الشباب إلى دورات في «الفوتوشوب»، ومن بعدها تحوَّل فنها إلى الرسم على الصور العائلية القديمة، وتلوينها، وإهدائها لنا على الفيسبوك. صارت البطلة في حفلات أعياد الميلاد، لأنها تستطيع وضع صورة المحتفى به وسط أبطال الكارتون، وعمل رايات ملونة لتزيين الاحتفال.

في بداية الألفية الجديدة كرست فنها لتصميم ملصقات للحركات الثورية. روحها ورسوماتها أوهمت رفاقَها، الذين لم يعرفوها إلا في الفضاء الافتراضي، بأنها شابة صغيرة. ذات يوم فاجأتنا وهي مستعدة للخروج. كانت تحمل حقيبة عمل رجالية، وترتدي ثوبًا أنيقًا:

. قررتُ لقاء زملائي في محطة الرمل.

عادت سريعًا لأنها اكتشفت أن زملاءها قُبض عليهم قبل اللقاء. بعدها شاركت في السلاسل البشرية على كورنيش الإسكندرية، وفي المسيرات عند بداية الثورة. عرفها ضباط المندرة وكانوا يُحضرون لها كرسيًّا . «اقعدي يا حاجة» . لكنها تُكمل ولا تلتفت إليهم. انضمت إلى حزب حمدين صباحى لأنه يذكِّرها بعبد

t.me/qurssan

الناصر. صارت أمًّا وصديقة لكل شباب الحزب.

اشترت خالتي شقة في العمارات العشوائية التي بُنيت حول بيت المندرة والتي كانت السبب في هدِّ جبل الرمل. فتحت من شقتها بابًا يُطل على حديقة تيتة، وزرعت شجر ليمون وحنة. تطعم قطط المندرة، التي تأتي في موعد محدد لتناول وجبتها.

t.me/qurssan

٢٤

أوقفنا محرك السيارة في منتصف الصحراء لنستمتع بصوت الصمت، ثلاثة كيلومترات بعد حاجز التفتيش. كان المساء الأخير في السنة، والهلال صغيرًا رقيقًا يستعذب وحدته في السماء الحالكة. لف «توم» سيجارة محشوة بالنبات الأخضر ودخنها في هدوء. لم يعكِّر صفو النجوم سوى كحته العميقة بعد أول نفس. بدأتُ الكتابة الليلة السابقة في السيارة، لم أكن أحمل دفترًا، فانتشلت ظرفًا من حقيبتي فيه دعوة لمعرض فني وكتبت عليه، تحت ضوء «الطورش» خوفًا من ضياع جمل وأفكار أحس أنها مهمة. كثيرًا ما أكوِّن جملًا وعبارات في خيالي، وحين أصل إلى مكان يمكنني الكتابة فيه تكون قد تبخرت كل الأفكار.

نصبنا الخيام بين جبلين، في الموقع نفسه كما في العام السابق. نقلنا الأغراض من «الجيب»، أعددنا مكانَين للنار، وحولهما الكليم، الشموع منتشرة على سفح الجبلين لتضاء حين تظلم السماء، قمرنا الليلة صار هلالًا أكبر. أساعد زوجي في إعداد الطعام.

بعد ساعات ينتهي عام ٢٠٠٠ وتبدأ ألفية جديدة، نقضيها في صحراء سيناء مع بعض أصدقاء «توم» من سكان شرم الشيخ ومحبيها. معي منى، ابنة عمي الزائرة من نيويورك، وأخي علي المطلَّق حديثًا، وصديقته الجديدة رنوة. الصديقة حالمة، تتحرك في خفة الفراشة، تحوم حوله ويقبلان بعضهما بعضًا كل خمس دقائق. عندما تعرفتُ إليها في بيروت، في خلال تغطيتي تحرير الجنوب، كانت وقتها متحدثة متحمسة. وحين التقت بعلي صار حديثها همسًا ونظراتها محلقة في الأفق وفي عينَيه.

* * *

قبل سنوات من زواجي كنا نقضي ليلة رأس السنة في بيت نادية، الكبار والشباب معًا، وكنا وقتها نحن الشباب. تبدأ التجهيزات قبلها بأيام. نُخلي الغرف الثلاث الرئيسية من أثاثها، ونكومه في غرفتَي النوم المتبقيتن. يلتزم الكل بإحضار جزء من الطعام

t.me/qurssan

وتتكرم طنط ماري ونادية بصنع المكرونة الإسباجيتي للجميع. كنت أساعدهما أحيانًا. نبدأ بهرم من الدقيق على طاولة المطبخ، نفقس البيض أعلى الهرم ونبدأ في تحريك دائري من أعلى الهرم إلى أسفله لتكوين عجينة سميكة. نفركها بالكفَّين، ونكوِّن كتلًا صغيرة، غليظة، نضعها في ماكينة تُحولها إلى شرائح رفيعة. نفرد شرائح العجين على المسطحات في أرجاء المنزل، بينما صلصة الطماطم «السوجو» تنضج على النار وتتكثف رائحتها: طماطم، جزر، بقدونس، لحمة مفرومة، سكر، وورق الغار.

قبيل منتصف الليل نكون قد انتهينا من الغناء الفردي، أنا وسهيل وزياد، فيتبعنا الآخرون بوصلة غناء جماعي. غناء جماعي للأغاني الثورية المصرية والإيطالية. نصل إلى أهم فقرة: عمو سعد وأبو العينين ينشدان معًا أغنية «إمتى الزمان يسمح يا جميل». لا تُختتم السنة إلا بهذا الدويتو. أذكر ليلة من ليالي رأس السنة أخذ الجمع ينشد فيها، من دون اتفاق سابق، النشيد القومي «بلادي بلادي» بعد تبادل القبلات عند انطلاق العام الجديد. مرت كل سهرات رأس السنة على المنوال نفسه، بتفاصيل مختلفة كل عام: هذا يسعد بقصة حب جديدة، هذا يهدد بالزواج، طنط غير راضية عن علاقة ابنها بحبيبته، ذاك يُطلق كل ما في معدته بعد إكثاره من الشراب... لا تنتهي الحكايات. حتى كان عام المفاوضات الفلسطينية-الإسرائيلية، وكان معارضوها من مجمل أصدقائنا كثيرين. اتخذت طنط ماري وعمو سعد قرارًا بنقل الحفل إلى منزلنا ليشكل حركة دعم لأبي، الذي كان يقود المفاوضات في واشنطن أوائل التسعينيات. كان آل كامل قد تعبوا أيضًا من الإعداد للحفل والطبخ والتنظيف كل سنة، فدُعي الجميع إلى منزلنا، واستمرت إقامة الحفل فيه ثلاثة أعوام متتالية.

t.me/qurssan

سبقَتني العتمة. وددت أن أصل مبكرة لأرى المدينة في ضوء النهار، لكنني وقفت أتنشق الهواء في الظلام، متلمسة كل روائح البرتقال والليمون والبوملي والياسمين والريحان وملح البحر المتبخر. كانت أول زيارة لي إلى غزة. تحقق حلمي، وأحسست أن حلمًا أكبر بفلسطين حُرة أصبح وشيكًا.

ليلة خروج جيش الاحتلال الإسرائيلي من غزة، لأول مرة منذ احتلالها في ١٩٦٧، وكل ليلة لأكثر من شهر بعدها، بقي الناس في الشوارع حتى الفجر. كان حظر التجول أثناء سنوات الاحتلال يبدأ يوميًا في السادسة مساءً. أخرج الناس كراسي البيوت إلى الشارع وجلسوا، وتبادلوا الحلوى والتهنئة. وكنت أنا، وأبي، وأخي علي وزوجته دينا، ونبيل ابنهما الرضيع، أول من وصل إلى غزة من عائلتي. أسبوع بعد دخول وحدات الشرطة الفلسطينية وشهر قبل عودة ياسر عرفات. حكايات غربة لم تنتهِ، تبادلناها مع الساهرين في الشارع.

أطفال غزة في الشوارع يُهدون الورود لرجال الشرطة الفلسطينية القادمين من البلاد العربية. الأهالي يبعثون لهم بالطعام ويفتحون بيوتهم لاستقبال من لا مكان له بعد. احتفالات يومية بالعائدين إلى أرض الوطن.

زحفت الجماهير باتجاه البحر تعويضًا عن حرمان سنوات. انتصبت آلاف الخيم والمظلات الملونة بطول الشاطئ للحماية من الشمس وتغيير الملابس. زينت أعلام فلسطين كل أكشاك المقاهي الصغيرة التي انتشرت بين الخيم، وظلّلت طائرات ورقية بألوان العَلم ما تبقى من السماء الصافية. الخيول أيضًا أخذت نصيبها وسبَحت. استحييت أن أرتدي لباس البحر واكتفيت بشرب الشاي والنظر إلى الأفق.

ذات ليلة دعينا مع عائلات أخرى عادت إلى غزة لحفل عشاء في بيت عائلة غزاوية أصيلة. اصطفت فرقة موسيقية، مكوَّنة من

t.me/qurssan

عشرة عازفين جلسوا على كراسي خشبية، بشكل نصف دائري بجانب الباب الخشبي الذي تُرك مفتوحًا على مصراعيه. الدار القديمة مبنية بالحجر المقدسي الكبير. الشبابيك والأسقف عالية، والبلاط قديم مزخرف، فُرشت عليه سجاجيد ملونة احتفاءً بالليلة الخاصة، وإن كانت الدنيا صيفًا لاذعًا. أصغر العازفين في الخامسة والستين من عمره، وقد ارتدوا جميعًا بذلات «سموكن» لامعة، وقمصانًا بيضاء ناصعة، وياقات مُنشَّاة. كانت البذلات قديمة، ضاقت وقصرت على أصحابها، وبدا أنها لم تُستخدم لسنوات ثم نُظفت ولُمعت للمناسبة. عزفوا ألحانًا لأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب ولأناشيد وطنية بحماسة شديدة لم تكلَّ طوال الليلة، والابتسامة العريضة لم تفارق ثغورهم. جلبت لنفسي كرسيًا وجلست بالقرب من الموسيقيين أسألهم أين كانوا يتدربون ومتى، فالانتفاضة تركت كل عائلة بشهيد أو أسير حتى غابت الفرحة عن المدينة. حكوا لي أنه لم يتسنَّ لهم إحياء حفل من عشر سنوات، وأنهم كانوا يجتمعون في بيت أحدهم مرة في الأسبوع ليعزفوا وحدهم وتبقى أصابعهم لينة، أملًا في يوم كهذا.

* * *

أرض ممتدة وسط مبانٍ سكنية عديدة في حي صبرة القديم، تحيطها شجرات سرو رشيقة وطويلة. كل نوافذ المساكن المجاورة مفتوحة على مصراعيها، يُطل منها ومن الشرفات والأسطح مئات من النساء والرجال والأطفال، يلوحون مُرحبين. الجماهير غفيرة في كل الشوارع المؤدية إلى قطعة الأرض، وتتكاثف كلما اقتربنا. يظلل ساتر من القماش الأخضر الأرض، والطاولات الطويلة المجهزة عليها وجبة تكفي المئات. امتدت حبال بين الشبابيك تحمل آلاف الأعلام الفلسطينية الصغيرة والملصقات المطبوعة بصورة أبي. كانت هذه أرض جدي، اشتراها بأول راتب جناه بعد أن تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت وعُين مُدرسًا في صفد، عام ١٩٢٩. كلفته خمسة جنيهات فلسطينية. حافظ عليها الأهالي طوال سنوات الاحتلال، بأن وضعوا عليها بيوتًا من الزنك حتى لا يصادرها جيش الاحتلال.

t.me/qurssan

أخيرًا جاء اليوم لتسليمها إلى أصحابها، فقد عادوا إلى غزة. اليوم أقام عليها شيوخ القبيلة حفل غداء على شرف ممثلّيها أبي وأخي الكبير. أما أنا فقد جئت كمصورة صحفية لأن الحفل كان لرجال العائلة فقط. بعد انتهاء الحفل ساهم العشرات في تنظيف المكان من مواعين الفتة والكنافة. كان أبي وأخواي قد صافحوا مئات المهنئين وقبّلوهم، بينما اكتفيت أنا بالمراقبة من بعيد، والتصوير، والابتسام لأخويَّ.

تذكرت بذورًا كانت في جيبي. بعد انتهاء الحفل قررت دفنها بجانب إحدى شجرات السرو في أرض جدي. حمَّلني البذور صديق فلسطيني في القاهرة، وعدته بزرعها في أي مكان في أرض فلسطين. لم يكن من المحظوظين مثلي ولم تُتَح له فرصة العودة. الاتفاقية لم تشمل ثمانية ملايين فلسطيني ما زالوا في الانتظار.

t.me/qurssan

الخميس عطلتي الأسبوعية من الجريدة، يوم مناسب لدعوة أخوَيَّ وعائلتيهما للغداء في منزلنا. في كل مرة يلتقي في بيتنا طفلاهما نبيل ومريم، يتحول البيت إلى سيرك. أضع للطفلَين قطع «الليجو» والحيوانات القماش المحشوة ليلعبا بها حتى أنتهي من تحضير الغداء. بعد غسل أيديهما الصغيرة، نجلس كلنا حول المائدة التي أحرص أن تتضمن الطبخات المفضلة لأخوَيَّ، والتي كانت تحضرها لهما دائمًا والدتنا الراحلة. بعدها أقدم للطفلين ما اشتريته من الدكان القريب من «الشيبسي» والعصير والآيس كريم، ويمتلئ المكان بالوريقات الصغيرة وبقايا الحلوى. نحَضر الشاي ونذهب بالصينية إلى غرفة الجلوس. يعلو صوت أخوَيَّ بالغناء أعلى من صوت الكاسيت.

ليلة جاءوا لتهنئتي و«توم» بِعيد زواجنا السادس، حضرت لهم وجبة خفيفة، وجلسنا كالمعتاد حول المائدة. قررت أن أحكي للصغيرَين قصة زفاف جدي وجدتي لأبي، علي الفلسطيني وسميحة اللبنانية، ساعية أن أربط في ذهنهما التاريخ بالجغرافيا وبالهوية.

حكيت كما حكت لي جدتي: العرس كان في بيروت عام ١٩٣٧. نزل المدعوون الرجال في فندق «البريستول»، بينما نزلت النساء في بيت أسرة العروس الذي امتلأ بصواني البقلاوة والكعك والفواكه. يعلو صوت الجميع في أغاني العرس:

اسم الله ع العريس، اسم الله عليه

جيبولُه أخته تِسمّي عليه

داخ ع العروس وما شا الله عليه

ويبدأ الجمع في الرقص. ذهبت أم العريس وأم العروس مع العريسَين إلى مصيف عاليه لتشهدا ليلة الدخلة.

في اليوم الثاني، انطلقت السيارات من بيروت، بالعروسين

t.me/qurssan

وأقارب العريس الذين حضروا الزفاف، وسارت بحذاء البحر الأبيض المتوسط في رحلة إلى فلسطين. في حيفا، ركبوا القطار في اتجاه يافا، ثم اللد. المحطة المركزية للقطارات في فلسطين. ومنها إلى القدس، بهدف الوصول إلى غزة حيث سيودّع العروسان الأهل قبل إكمال رحلتهما بالقطار نفسه إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل. لكنْ في محطة القدس، اكتشف جدي أنه نسي أن يطلب تصريح دخول مصر لعروسه اللبنانية. تركها تكمل الطريق مع أهله إلى غزة على أن تقضي الليلة معهم، ونزل هو في محطة القدس لإنهاء إجراءات السفر البسيطة. كانت فلسطين ومصر تحت الاحتلال البريطاني، ولا يحتاج مواطنو البلدين إلى تصاريح للتنقل، أما لبنان فكان تحت الاحتلال الفرنسي. كان عليها إذن أن تنتظر عريسها الصباح التالي في محطة غزة، حيث يصل هو في قطار السادسة صباحًا المتجه إلى مصر، فتركب معه على السكة الحديد التي تم استكمالها عام ١٩١٨ لتكمل طريق قطار الشرق السريع المقبل من إسطنبول، عبر سيناء.

جاء مفتش القطار وقرر منع العروسين من البقاء في المقصورة نفسها، لأنها كانت للنساء فقط. بدأت العروس في البكاء والعريس في الخناق، فقد كانا وحدهما في المقصورة. كان ذلك في شهر أغسطس الحار، وحاول جدي علي أن يُقنع المفتش على أساس أنهما في رحلة شهر العسل. ولكن الأخير لم يقبل ببقائهما معًا، إذ كان على خلاف سابق مع جدي الذي يذهب إلى مصر بانتظام. حين وصلا إلى القنطرة شرق، قبل السويس، شكاه العريس للضباط، وكان معظمهم من الإنجليز. تفهموا المشكلة وانتصروا له على حجج المفتش.

كان على الركاب في القنطرة اعتلاء المعدية لعبور قناة السويس، وركوب القطار على الضفة الأخرى في اتجاه الإسماعيلية ثم بنها، وفي بنها يتم تغيير القطار والاتجاه إلى القاهرة أو الإسكندرية. قرر جدي قضاء بضعة أيام مع عروسه في القاهرة التي وصلا إليها قبيل المغرب. يوم استكملا رحلة شهر العسل إلى الإسكندرية علما في القطار أن البلد تحتفل بتتويج الملك فاروق

t.me/qurssan

وقد سبقهما إلى المدينة الساحلية. «إسكندرية كانت شعلة نور» كما أكدت جدتي سميحة. ولكنهما لم يجدا غرفة فارغة لتستقبلهما تلك الليلة، فاضطرا إلى قبول دعوة سيدة قابلاها في القطار وادعت أنها تملك بنسيونًا في حي المنشية. وكانت ليلة! «كان ماخورًا»، كما تصف جدتي، وقد اقتحمت صاحبته الغرفة عليهما عارية. (حذفت هذا الجزء من القصة عن الصغيرين). في اليوم التالي انتقلا إلى بنسيون تملكه إيطالية في حي الأزاريطة.

حين سألتُ جدتي لأمي، فاطمة، عن ذكرياتها عن القطار، حكت لي عن حفل التتويج نفسه:

. كان العساكر مرتدين زيًّا أبيضَ ومصطفِّين على جانبَي السكة الحديد من محطة مصر حتى المنتزه حيث يقام الحفل. كان الشعب الفرحان يُنشد في انتظار القطار:

يا ملك البلاد يا زين

يا ملك البلاد يا نور العين

أبو ورد ع الخدين

يا فاروقنا ويعيش لنا مليكنا

سمعوك ملايين وألوف

من قنا لأسوان لمنوف

وقفوا صفوف وصفوف

يا مليكنا وتعيش لنا

* * *

بعد حكي قصصي للطفلين، يرحل الجميع وينفضُّ مجلس العائلة. يتجه «توم» في صمت إلى جهاز الكمبيوتر، وأبدأ أنا في نقل الصحون الفارغة إلى المطبخ. أنفض المفرش من بقايا الطعام في الحديقة الصغيرة، أنتقل إلى الغرفة الكبيرة ألملم الألعاب

t.me/qurssan

المتناثرة هنا وهناك: تحت الصينية النحاسية، وراء الكنبة، بين المقاعد والوسائد. أجد علبة سائل الصابون مفتوحة، وبجانبها العصا البلاستيكية بالدائرة الصغيرة في آخرها. أجلس في مكاني المفضل، في الكرسي الوثير أمام التلفزيون. أضع العصا داخل الزجاجة وأبدأ في نفخ فقاقيع الصابون في الهواء.

t.me/qurssan

في أول زيارة لي إلى غزة بعد استقرار بابا في شقة على مشارف حي الرمال، قررتُ البحث عن محطة قطار غزة. لفتت انتباهي بعض العلامات على الطريق إذ كانت تدل على وجود قطار، ودائمًا بالقرب منها قطع قصيرة من حدائد السكة. توقفت لأصورها وحسنًا فعلت، لأنها كانت قد اختفت في زياراتي اللاحقة إلى غزة.

استخدم جيش الاحتلال الإسرائيلي حديد السكة في سيناء وغزة لتحصين خط بارليف. بقيت بعض الحدائد منسية متناثرة في قطاع غزة. في رحلة إلى بيارة برتقال لزيارة أقارب لنا ممن لم يتركوا غزة طوال فترة الاحتلال، لاحظتُ أن الأهالي استخدموا بعضًا مما لم يسرقه الإسرائيليون لتعضيد أسوار بيوتهم. شرح لي مضيفنا أن المسامير الحديدية الطويلة كان لها سعر خاص، لأنها أحسن ما يُستخدم لتطعيم أشجار اللوز بالحديد اللازم لإثمارها، وأنه حتى السبعينيات كان الأطفال يتسابقون من يجد بعضها مدفونًا في الرمال. قال أقاربنا إن كل ما تبقى هو المبنى المخصص لإيواء القطار، ومحطة كاملة في مدينة خان يونس. أما عن محطة غزة فأجمعوا أن لا أثر لها. قررت زيارة الجراج في اليوم التالي. أرض ممتدة واسعة مهملة، يتوسطها هيكل حديدي صامد، وتراب السنوات عالق بين ثناياه.

احتفلنا، في زيارتنا تلك إلى فلسطين، بِعيد زواجنا الأول، في مقهى صغير هو مشروع لفنان تشكيلي يعرض فيه بعض الأعمال الفنية له ولزملائه الفنانين على الحوائط، ويشجع الموسيقيين من الشباب على أن يعزفوا للجمهور في الفترة المسائية. أخرج «توم» لفافتين، إحداهما صغيرة وخفيفة والأخرى بالغة الثقل، لفهما بورق ملون وقدمهما لي هدية للمناسبة. اللفافة الصغيرة حَوت لعبة من البلاستيك: قطار بأربع مقطورات، كتب لي: «الأورينت إكسبرس» على عَلم القطار. أما اللفافة الثقيلة فكانت، لدهشتي، قطعة مربعة من حديد السكة، وجدها يوم انتشرنا في

t.me/qurssan

بيارة البرتقال، وخبأها أيامًا ليعطيني إياها في عيدنا. أمتلك بفخر قطعة من السكة.

في زيارة عائلية لشيخ عائلة الشوا، حكى لنا الأخير عن محطة غزة، فتجدد أملي في العثور عليها. قررت سؤال كبار السن فهم من عايشوا فترة القطار، ووجدت من أكد لي أن آثار المحطة باقية.

نصحني الشيخ بالتوجه إلى حي الشجاعية والدخول في الشارع الأخير يمين الميدان. وصلت إلى الميدان، آخر شارع عمر المختار وبداية حي الشجاعية. جُلت بنظري حوله حتى عثرت على بغيتي: عمارة قديمة مطلة عليه، وعلى شرفة الطابق الثاني منها لافتة، بالكاد مرئية، كُتب عليها بخط ثلث جميل:

فندق المحطة الجديد

عبرت خلال مئات القطع من الملابس المستعملة المعلقة على شماعات أرضية عريضة في سوق الشجاعية. أحسست أنها لا تنتهي، إلى أن قابلت وجهًا مبتسمًا فوق قاطرة ضخمة تمهِّد شارع صلاح الدين. سألني إن كان باستطاعته مساعدتي، بعناد قلت إنني لن أسأله إلا إن كان من سكان غزة الأصليين، فأومأ بإيجاب ضاحكًا ومستغربًا سؤالي. سألته بتشكك إن كان يعرف مكان المحطة، أشار إلى شارع قريب ووصف لي أن أمشي إلى آخره:

. هناك تجدين محطة القطار.

مشيت وقلبي يدق بعنف، طرقت مدقًّا رمليًّا ضيقًا حتى نهايته: جامع صغير إلى الشمال، ودكانان صغيران إلى يمين الشارع، أحدهما ورشة سجاد يدوي. تلفتُّ حولي حائرة، خرج من ورشة السجاد شيخ مهيب ذو لحية بيضاء وجلباب ناصع. سألني عن مقصدي وأجبته.

انحنى إلى الأرض والتقط عصا رفيعة، وبدأ يخط لي خريطة للمحطة على الرمال الناعمة، وأخذ يشرح مشيرًا إلى الرسم:

t.me/qurssan

. هنا كان مبنى الركاب، مربعًا حديث الطراز أيامها، أمامه جرس المحطة، اللافتة بخط جميل على الشمال.

ما إن قام عن الأرض، حتى حركت النسمات حبيبات الرمل والرسم.

t.me/qurssan

٢٨

بعد ساعة طيران من القاهرة، حططتُ قدميَّ على أرض مطار غزة لحظة الغروب. كان توهج الشمس قد انكسر، ونسمات الهواء البحرية تداعب النخلات العالية على حدود الممر الفسيح، حيث تجثم طائرة واحدة صغيرة، يزينها العلم الفلسطيني. كان على كل الركاب أن يُرَحَّلوا بالحافلات من المطار في خان يونس إلى معبر رفح البري، حيث يجري التحقيق والتفتيش. لكنني بقيت واقفة على أرض المطار الخالية إلا مني والطائرة حتى آخر انكسارات الأشعة على البلح الأحمر.

مطار غزة يعمل لأول مرة في ١٩٩٨، بعد عامين من إنشائه. تصميمه هدية المغرب لفلسطين، وقد بُني على غرار مطار الدار البيضاء، وجاء مئات الحرفيين المغاربة خصوصًا لتركيب قطع الخزف الملون التقليدي، بينما بنت الممرات سواعد عمال «المقاولين العرب». تحوَّل المطار، خلال أشهر انتظار الإذن باستخدامه، إلى مقصد رحلات المدارس، وإلى مكان تصوير محبب للعرائس من أنحاء القطاع، يأتون صباحًا بثياب العرس وتُلتقط صور العرس التذكارية على خلفية برج المراقبة والمبنى الأبيض.

* * *

t.me/qurssan

في أحد الأيام قبل انتهاء بناء المطار، اتجهت شاحنة كبيرة إلى فضاء خُصص مؤقتًا للطيران، محمَّلة بآلاف الباقات من القرنفل الغزاوي. الحرس الرئاسي في حالة استعداد قصوى أمام الطائرة، ينتظر الرئيس ياسر عرفات، الذي سينطلق إلى النرويج ليتسلم جائزة نوبل للسلام للعام ١٩٩٤، مشاركةً مع «رابين» و«بيريز». وقفتُ بعيدًا ألوِّح لأبي وهو على سلم الطائرة، وقد وعدني بتلبية طلبي الدائم في أن يجمع لي أكبر قدر من التذكارات في الحفل: قائمة الطعام، علب الكبريت، إمضاءات الحاضرين، إلخ.

اشترت لجنة الجائزة كل الزهور التي سافرت معه بالطائرة، ودفعت دولارًا بالقرنفلة، وأهدت زهرة لكل ضيف مدعو إلى الحفل. ووقَّع الاتحاد الأوروبي عقدًا بشراء عشرة ملايين زهرة من غزة كل عام.

* * *

دمرت إسرائيل مطار غزة بعد ثلاث سنوات فقط من بداية عمله. وقطعت الطرق التي تصل بين شمال القطاع وجنوبه.

على رمال شاطئ دير البلح موقف مزدحم لعربات تجرها الحمير، اصطف أمامها الموظفون وطلاب المدارس. لم تبقَ وسيلة للعبور بين شمال القطاع وجنوبه إلا داخل المياه، بعد أن قطع جيش الاحتلال الإسرائيلي شارع صلاح الدين وجرف أيضًا جزءًا من الطريق الوحيد الآخر، كورنيش البحر. من ليس باستطاعته دفع عشرة شواكل يوميًّا ليركب العربة مع عشرين آخرين، يحمل حذاءه تحت إبطيه، وحقيبته، ويمشي في الماء. أما المتيسر فينتظر دوره ليركب.

وصلتُ من مصر عن طريق معبر رفح. كانت اتفاقيات غزة-أريحا تُفرق في المعاملة في إجراءات السفر، وتُعطي صفة «الفي آي بي» (الشخصيات المهمة) للمسؤولين في السلطة وعائلاتهم. بعد بداية انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، ألغت إسرائيل جميع الاتفاقيات، لكن المسؤولين عن موقف العربات اعتبروا أني شخصية تستوجب معاملة متميزة كوني من عائلة مسؤول في السلطة؛ لذا

t.me/qurssan

أركبوني عربة وحدي، يجرها حصان بدلًا عن الحمار. تربعت على القاعدة الخشبية، وحقيبة سفري بجانبي، وسط ضحكات الجماهير المنتظرة دورها. ضحكتُ أنا أيضًا، ساخرةً من عبث الموقف وحرجه. بقيَت مشكلة العبور بين شمال قطاع غزة وجنوبه عامًا كاملًا.

t.me/qurssan

قضيت أعوامًا لا أعرف من الإسكندرية إلا المندرة وشاطئها. كبرت قليلًا، وصرت أقود مسيرة الأطفال عبر الرمال البيضاء حذاء السكة الحديد حتى بيت خالي تركي بالقرب من محطة القطار، ونحن نحمل فوانيس رمضان، طمعًا في الحلوى. بعد ذلك أُوكلت إليَّ مسؤولية استلام حصة جدتي من التموين في دكان الإدكاوي، أو الوقوف، كما كانت تفعل، في طابور الجمعية على البحر. في الطريق إلى الجمعية كنت أسير عبر شارع «مردوخ»، وأتلصص على السينما القديمة من بين أبوابها الحديدية، وأمُر على الطاحونة، ثم أشتري الجرائد ومجلة «سمير» من ناصية شارع نعمة.

كنت في الواحدة والثلاثين من عمري عندما قضيت فترة في الإسكندرية خارج نطاق العائلة لأول مرة. كان ذلك أثناء تصوير فيلم «المهاجر». أقمت مع العاملين في الفيلم، أيام تصويره في الميناء، في فندق «ويندسور»، ولم يكن قد جُدد بعد. أما المخرج، يوسف شاهين، فنزل في فندق «سيسيل». تمثلت وظيفتي كمساعدة لرمسيس مرزوق في رصد راكور الإضاءة. أعجب شيء بالنسبة إليَّ في تلك التجربة كان أني مقيمة في فندق، في الإسكندرية، مع زملاء عمل، بعيدًا عن المندرة. حتى إنني لم

t.me/qurssan

أول صرخة استنكار وتوبيخ من «الأستاذ»، حين بحلقت في البحر ولم أنتبه إلى عملي.

* * *

لم تزَ تيتة فاطمة جدي حسين قبل الزفاف سوى مرة واحدة. كان صديقًا لأخيها ومُدرسًا معه في المدرسة نفسها. «كان زي القمر، روحوا شوفوا صورته في الصالون. كان أحلى من الملك فاروق». سكن العروسان فترة قصيرة في حي كامب شيزار، ثم انتقلا مع بكريتهما صفاء (أمي)، إلى الصعيد خلال الحرب العالمية الثانية. هناك ولدت خالتي هناء. نُقِل جدي إلى مدرسة الأميرة فايزة في محرم بك بالإسكندرية، فقرر شراء أرض واسعة وبناء بيت لعائلة كبيرة خطط لها. اختار المندرة، لأنها أقرب إلى المدينة من حي المعمورة الموحش بالذئاب والضباع. فالمندرة صحراء رملية لم يكن بها سوى بعض مساكن خشبية لقضاء الصيف، مملوكة لعائلات إيطالية ويونانية ويهودية وقليل من ثكنات الجيش الإنجليزي. سكنوا، وقد أصبحوا خمسة بعد ولادة خالتي زكاء، غرفة خشبية لأربع سنوات، ولد فيها خالاي أحمد وفاء ومحمد بهاء. ولدت خالتي رواء في البيت الجديد وكانت جدتي باعت كل ذهبها لاستكمال البناء، ووعدها جدي بالتعويض عنه، ولكنه لم يفِ بوعده؛ أصابه مرض السرطان ولم يُكمل عامه الخامس والأربعين، ومات عام ١٩٥١ بعد عامين من انتهاء بناء البيت، تاركًا لها ستة أطفال بين سنَّي الثالثة والثالثة عشرة، وتوأمًا لم يرَ النور بعد: حسين وحسناء. أصبحت فاطمة ـ «أم صفاء» كما كانوا يلقبونها ـ أرملة في الثالثة والثلاثين من عمرها. على مدار السنوات تستعيد لنا جدتي حكايتها: كيف ربت ثمانية أطفال وحدها بمعاش جدي الضئيل، كيف أدخلتهم المدارس ثم الجامعات، كيف خاطت الملابس وأعادت حياكتها لتلائم الأصغر سنًا، كم من الأيام صامت حتى يكفيهم الطعام. عجنت كعك العيد وخبزته بيدها، حتى في ذلك العيد الذي مات أبوهم قبله: «العيال ذنبهم إيه؟»، هكذا كانت تردد. مع كل ذلك، لم تكن تيتة فاطمة التي عرفناها كلنا إنسانًا تعيسًا قَطُّ، بل امرأة مليئة بالنشاط

t.me/qurssan

والفكاهة. تُطعمنا جميعًا في الأعياد والمناسبات . أبناءها وقد تزوجوا، وأحفادها الواحد والعشرين. تخيط ثياب اللعب لنا ولعرائسنا من الأقمشة نفسها، ونلعب ساعات طوال في حديقتها، الغنية بالنخيل وأشجار الكافور والجوافة والزيتون، وتكعيبة العنب، والدجاجات والحمام. تُقنع أمهاتنا بأن تطول فترة السماح باللعب مع أولاد الجيران، وتسرب لنا الساندويتشات أثناءها. تتحايل معنا في السهر على الفيلم العربي المذاع في التلفزيون من وراء ظهور أمهاتنا بعد الساعات المسموحة للسهر، الأمر الذي جعلنا نتعاطف معها في التحايل لأكل الحلويات والآيس كريم ضد أوامر الأطباء بعد إصابتها بالسكري.

* * *

أتذكر أن أرتدي قرطي الذهبي وسوارين وخاتمًا قبل مغادرة المنزل؛ جدتي تحكم بها على حالتنا المادية، وبالتالي على استقرارها. أضع حقيبة ملابسي، التي كبر حجمي عليها، وأكياس المكسرات والفواكه المجففة التي اشتريتها لها من بيروت، ونسخة من كتابي الجديد «تحت سماء واحدة: القاهرة» في صندوق سيارتنا. أنطلق أنا و«توم»، وسط زحام خروج التلاميذ من مدارسهم، إلى الإسكندرية.

تغيرت المدينة ومداخلها. قرر «توم» أن نجرب الطريق الدائري الجديد الذي يصل الطريق الصحراوي بالمدينة من الشرق، لأن ذلك أقرب من الدخول عبر وسط المدينة إلى المندرة. منطقة السيوف تعج بسكانها في الشوارع الضيقة مع اقتراب موعد الإفطار، بائعو الخبز والفواكه والتمر ومشروب التمر هندي ينادون على «آخر فرصة للشراء»، وسط زينات وفوانيس معلقة بين المباني، وعبارات كثيرة على الحوائط تؤيد حركة حماس الفلسطينية.

نصل عند انطلاق المدفع تمامًا. جدتي وخالاتي الأربع في انتظارنا، ويستقبلننا بلهفة. المائدة عامرة احتفاءً بنا: ملوخية وأرز وبطة وفتة دجاج بالمكسرات، بسلة بصلصة الطماطم وورق

t.me/qurssan

عنب محشو وسلطة خضراء. لم تنسَ جدتي بالطبع صحن المسقعة . أكلتي المفضلة . ووضعته بكامله أمامي.

تدللني جدتي وخالاتي، يرفضن عرضي تنظيف المائدة وتحضير الشاي. أتجه لغسل يديَّ عبر صالة الجلوس مرورًا بالرواق المظلم الطويل إلى الحمام الخلفي.

كان حجم الحمَّام في طفولتي ثلث حجمه الآن. في وقت ضيق ذات اليد أجَّرت جدتي نصف المنزل لأقارب لها، وقسمت الحمَّام، فكان الجزء المتبقي لنا ضيقًا معتمًا بدائيًا، به نافذة صغيرة مستطيلة تطل على الحديقة الخلفية وأقفاص الحمام والدجاج والأرانب. تدفئه أمي بالوابور قبل تسخين الماء للاستحمام، تُجلسني على كرسي خشبي صغير وتسكب على جسدي الصغير الماء من خليط دافئ في وعاء نحاسي كبير، يتصاعد البخار ويخفي كل شيء.

أعود إلى العائلة المجتمعة حول صينية الكنافة، خبزتها خالتي هناء وحشتها باللوز والزبيب، كل ركن في البيت دافئ يبعث ومضات ذكرى حميمة.

t.me/qurssan

جاءتنا الفرصة أنا ودينا ورنوة والأولاد لقضاء أيام العيد الكبير في منزل صديقة جميل على الشاطئ. في الطريق من القاهرة إلى الساحل أتذكر صيحة جدتي سميحة التاريخية لي كلما اتجهت إلى المصيف: «تيتة ما تحطي حالك بالشمس ما انت أصلًا سودا». مع اعتراضي كل مرة ـ الله يرحمها ـ يمكن كان معها حق. أنا أصبح فحمة بعد يوم في الشمس.

تأتينا نغمة الموج موزونة ومتكررة عند وصولها إلى الشاطئ الرملي الأبيض. اقتربت الشمس من موعد نومها. ثماني أقدام تلعب في الحديقة، تأخذ دورها في المرجيحة الوحيدة، تتعالى الضحكات، ترفل المناشف وملابس البحر في نسمات المغرب، يعلو صوت من داخل البيت: «العشا يا ولاد». يأتون راكضين، متسابقين إلى الطاولة. أبتسم. ألاحظ أني صرت الصوت الآتي من داخل البيت.

t.me/qurssan

بجانب بيتي في القاهرة صيدلية تشبه صيدلية خالتي وعمو كارم. الصيدلانية تعرف الكل بالاسم. تعالج بالابتسامة والنصيحة قبل أن تبيع الأدوية، تنصح دائمًا بالبدائل الأقل ثمنًا، تُرسل عم وهيب التمرجي بالأدوية والحقن إلى من لا يستطيعون الذهاب إلى الصيدلية. هي الوحيدة التي بقيت مستقلة على حالها، ولم تصبح جزءًا من سلسلة تجارية كبيرة يتغير عمالها بسرعة البرق ولا يقيمون علاقة شخصية أبدًا بالزبائن. أرففها بسيطة، وليست مبهرجة بأدوات التجميل المستوردة الغالية. صارت ورد، ابنة صديقتي وزميلتي هبة، تصر عند زيارتي على المرور على الصيدلية فقط لتسلم على الدكتورة.

من أسبوع أغلقت الصيدلية أبوابها. ظننت الأمر للتجديد. أُصبت بنزلة رشح رهيبة، وحاولت الاتصال بعم وهيب لم يرد. تحاملت على نفسي ومشيت لأشتري دواءً، قابلني شاب بمعطف أبيض، مالك جديد للصيدلية. حين طلبت حبوبًا تُوقف الرشح رد:

. مفيش غير المستورد بتمانين جنيه.

* * *

تمنيت وأنا صغيرة أن أصبح صيدلانية «لما أكبر». لم تأتِ أمنيتي من فحص جاد للموضوع. اختارت خالتي حسناء، مَثلي الأعلى في الحياة، دراسة الصيدلة، وكانت تصحبني معها إلى الكلية، وفي رحلاتها مع زملائها، الذين كانوا يدللونني باعتباري «الصغيرة العاقلة والشاطرة». عملَت حسناء في صيدلية كارم في سيدي بشر، وتعاهدت وكارم على الحب، وعلى تكريس حياتهما لخدمة أهل الحي وعلاجهم . وما زال العهد ساريًا. في الإجازات الصيفية، قضيتُ أيامًا عديدة في الصيدلية، أحاول التعلم والمساعدة. برعتُ في إيجاد الدواء المطلوب بسرعة فائقة، فالأدوية مرتبة أبجديًا بالأحرف اللاتينية. فشلتُ في الجمع والطرح، وبالتالي لم أقرب صندوق النقود قَطُّ. راقبت كارم

t.me/qurssan

وأعجبت بدقته في تركيب الأدوية، وبحرصه على توزيع العلب التي تأتيه عينات وهدايا مجانًا لغير الميسورين. الصيدلية حياة حي بأكمله: يأتون للمشورة في الأمراض وعلاجها، فكثيرٌ منهم لا يملك حق عيادة الطبيب. ويأتون أيضًا للمشورة في مشكلات الحياة اليومية. يصبح المكان يوميًّا ندوة مفتوحة في مواضيع شتى. أحببت فكرة القدرة على الشفاء.

t.me/qurssan

الليلة نمت في بيت الطفولة في جاردن سيتي. سافر «توم» لزيارة أهله. دعتني دينا لكي أقضي الليلة معها ومع نبيل، ومرت لتقلني معهما بعد انتهاء اليوم الدراسي الطويل. ساعدتُ نبيل في تغيير ثيابه ريثما تنتهي هي من تحضير العشاء. منذ زمن لم أجلس إلى مائدة وأتلذذ بوجبة ساخنة مُعدة في البيت، حساء ودجاج وبامية وأرز. حكيت لنبيل عن طفولتنا في البيت وتغيير تقسيمات الغرف كلما كبرنا، ضحك لتخيله عمته وأباه وعمه يتضاربون بالجوارب.

جلسنا نحن الاثنتين نحثه على مراجعة دروسه وحفظ القصيدة المملة في منهج اللغة العربية. طلب كوب ماء، ثم طلب مشروب كاكاو ساخنًا، كتب ومحا الكلمة نفسها خمس مرات، لم يحفظها إلا بعد اختراعي لحنًا راقصًا للمعاني الجوفاء. ارتدى ملابس النوم وقبَّلنا مستحثًّا أن نسرع في مشاركته السرير الكبير. استكملت جلسة حميمة انقطعت منذ سنوات بيني وبين أمه، التي طلقت من أبيه . أخي . منذ عامين.

سكنَّا الشقة عند عودتنا من أمريكا وعمري ثلاث سنوات ونصف.

t.me/qurssan

كنت وحيدة أبوَيّ وقتها. أذكر يوم سمحت لي أمي أن أعتلي السلالم وحدي. واليوم الذي أرسلتني أمي لشراء البيض من الفلاحة العجوز. واليوم الذي تركني فيه أبي نائمة وحدي في المنزل لقضاء واجب عزاء، فبذل جهدًا خارقًا حتى أفلت الستارة جوار سريري من يدي الصغيرة، وأذكر مداعباتي الجنسية الأولى مع ابنة الجيران الهندية تحت السرير، والإحساس بالذنب حين كشفت أمي السر ومنعتها من زيارتنا.

الغرفة الكبيرة عادت لتكون غرفة الزوجين. لكن دينا وحدها الآن. سهرنا نتحدث حتى الثانية عشرة، ثم نقلنا الصغير نبيل إلى منتصف السرير وأحطناه من الجانبين، أخذت الموقع المطل على الشباك الذي تُرك مفتوحًا. شجرة المانجة لا تزال باسقة، تغطي أغصانها المتشعبة معالم الفيلّا المُقابلة، المهجورة دائمًا. عبثًا حاولت النوم. كثرة حركة الصغير، وتحريك الذكريات وما تحمله من أحاسيس متشابكة، أبعدوه تمامًا عن جسدي المنهك. وفي الرابعة فجرًا انتابتني نوبة سعال التدخين، فقمت ودخلت الحمام. على الرغم من تغير ألوان بلاطه وأرضياته وحوائطه بعد انتقال علي ودينا إلى البيت، لا يزال قفل الباب مكسورًا منذ اليوم الذي فقدت فيه وعيي من دخان السخان وكدت أغرق في البانيو، كان يوم حفلة تخرجي في الجامعة، يومها اقتحم الحمام أخواي كاسرين الباب وأنقذاني من موت محقق.

قررت محاولة النوم في غرفتي الأخيرة، وقد أصبحت غرفة لمشاهدة التلفزيون. لم يتبقَّ غير ساعة ونصف ويحين موعد إيقاظ نبيل وتجهيزه للمدرسة. توالت مشاهد كثيرة أمامي في لمح البصر، أيام كنت صبية نحيلة ذات شعر طويل يصل إلى أسفل ظهري، واخترت اللون الوردي للجدران ـ رومانسية المراهقة. ملأتها بملصقات فلسطينية رسمها إسماعيل شموط، وبأبيات شعر، وبصور مختلفة: صور للفدائيين، صورتان فوق المكتب قصصتهما من الجرائد لسناء المحيدلي ومن بعدها لدلال المغربي، صور كثيرة التقطتها للبحر في بيروت والإسكندرية وعلّقتها فوق السرير في محاولة فاشلة لنقل صوت الموج إليّ

t.me/qurssan

قبل النوم، صورة وحيدة لوجه العذراء رسمها «ليوناردو دافنشي» وكنت أحس أنها تشبهني بوجهها المستغرق في الشجن. عودي يحتل جزءًا كبيرًا من الغرفة الصغيرة، لم أجد له مكانًا في زحام الكتب وشرائط الموسيقى على الأرفف. بكيت حين قرر أبي انتقالنا إلى شقة أوسع. حين خُلِعتُ غدرًا من لبنان، لم أحمل معي أي صور لغرفتي في بيتنا في بيروت. تعويضًا عن ذلك، صورتُ هذه المرة الغرفة من جميع الزوايا، في كل ساعات النهار، حتى آخر انكسار لأشعة الشمس. تركت فيها صوت أمي.

* * *

كنت أظنها قاسية. في مراهقتي خطر على بالي أنها قد تكون وجدتني رضيعة في الشارع. لا أتذكر أنها حضنتني أو قبلتني يومًا، أتذكر صرامة قوانينها: النوم قسرًا بعد الظهر، النوم مبكرًا حتى في الإجازة الصيفية، بقائي أسيرة أمام كوب الحليب أو عشائي حتى أنتهي منه، شد شعري عند تضفيره، تفاصيل النظافة اليومية حتى لو كنا منهكين من رحلة طويلة، إلزامي بنظافة غرفتي وترتيبها ومنعي من أي طلب من السيدة التي تأتي لمساعدتها في المنزل. «هويدا مش هنا تخدمك، هيَ جاية تساعدني في تنظيف البيت». المحاذير العديدة في العلاقات بزميلات المدرسة وشبه استحالتها مع الصبيان، إصرارها على عودتي في موعد مبكر وأنا طالبة جامعية حتى لو كانت هناك توصيلة بعدها بدقائق، إجباري على محادثة الضيوف حتى لو كانوا مملين، منعي من التزين بأدوات التزيين مثل كل المراهقات الأخريات لأنها مضرة بالصحة، اعتبار يوم الجمعة إجازتها الأسبوعية من الأعمال المنزلية وتقسيمها عليَ أنا وأخويَ.

ذات يوم، وكنت على وشك الانتهاء من الامتحانات والتخرج، مررتُ عليها في غرفتها لتدعو لي كعادتها قبل كل امتحان: «فتّحي مخك كويس واقري الأسئلة كويس وجاوبي بأحسن ما عندك». كانت في سريرها، تبكي. قبل أن أسألها عن سبب حزنها، تذكرتُ مشاجرتها مع أبي اليوم السابق. كان كثيرًا ما يعود بضيوف إلى المنزل. ثلاجتها دائمًا مليئة بالطعام تحسبًا لإكرام

t.me/qurssan

كل من يمر بنا، فهي طباخة ماهرة وعندها قدرة عظيمة على التصرف في كل شؤون البيت: تُصلح كل الأجهزة الكهربائية وتفهم في السباكة. بالإضافة إلى عملها في مكتب دار الفتى، كانت مسؤولة عن كل الأعمال المنزلية وشؤون الأولاد الثلاثة. حين تشاجرا، كانت تذكِّر أبي أن ينبهها عن قدوم ضيوف كي تقوم بالواجب على أكمل وجه، بدلًا من مفاجأتها كالعادة بهم في البيت. كانت تذكِّره أيضًا بامتحاناتنا وأهمية هدوء المنزل.

فجأةً، ولأول مرة، رأيت أمي امرأة مثلي، تطالب بحقوق مشروعة. عانقتُها واتجهت إلى الجامعة. في كل خطوة في الطريق صرت أتذكر مساندتها لي، هي التي كانت تحضر مجلس الآباء في المدرسة، تعلم بما أحتاجه من ملبس أو أدوات وتأتي به قبل أن أطلبه، تستمع إلى تمارين دروسي في العود وتشجعني مع أنها كانت أصواتًا مملة ورتيبة، تراعي كل تفصيلة عملية في حياتنا وتحاول حمايتنا من تقلبات الصراعات السياسية التي يعاني منها أبي، ومن مخاوفنا في ظل سفره المستمر.

تخرجتُ بعدها بأيام. أزالت أمي عني كل القيود. خرجت أنا وماما كزميلتَين في اجتماعات عديدة تطالب بإيقاف قانون جيهان السادات لعدم دستوريته، وبحماية حقوق المرأة والأسرة من خلال قانون عادل لا يتعارض مع الدستور.

سافرتُ لإكمال دراساتي العليا بعدها بخمسة أشهر. كانت تطلبني مرارًا بالتلفون لتطمئن عليَّ. من وراء ظهر أبي. دعت لي في أول امتحان. لم يُمهلنا القدر أن تكمل دعواتها لي، ولا أن أستمتع بصداقتنا الجديدة. رحلَت وعمرها ٤٦ سنة.

t.me/qurssan

سافر «توم» وأخي رامي إلى غزة ثالث أيام انتفاضة الأقصى، على أن ألحق بهما أنا وعلي بعدها بيومين، لكي أستطيع إبلاغ الجريدة وشراء الأفلام، ولكي يودع علي ابنه نبيل بما أنه سيضيِّع حقه في عطلة نهاية الأسبوع. طلب علي تاكسيًّا من القللي، لكنه وصل متأخرًا ساعة بسبب زحمة الطريق. طلبنا من السائق فتح الراديو لكي نسمع آخر الأخبار قبل أن نصل.

فتحه السائق السخيف على محطة إسرائيل، الموجهة باللغة العربية. تبًّا لعنجهيتهم. يا للمصيبة، لقد بدأوا بقذف غزة ورام الله بالطائرات! حاولنا الاتصال بأبي ورامي مرارًا من دون فائدة، فقد قطعوا الاتصالات.

قطعنا قناة السويس ونحن متوجسون شرًّا لما يحدث، نحاول الاتصال بغزة مرات عديدة من دون جدوى. فكرت أن خط المحمول سيضيع في المسافة بين القنطرة والعريش، فاتصلت بزميلي خالد لأنه على اتصال بوكالات الأنباء، عله يأتي لنا بأخبار. اتصلت أيضًا بهاني، مديري في الجريدة، فنصحني بالعودة إلى القاهرة ووعدني بالذهاب معي إلى فلسطين في أقرب فرصة. حثثنا السائق أن يسرع، فقد تملكنا القلق على أبي وأخي وزوجي،

t.me/qurssan

رفح عن الأخبار، فنصحنا بالبقاء في العريش لأنهم أغلقوا المعبر. لم نستجب لنصيحته وتقدمنا في اتجاه الحدود. حاول علي الاتصال بأيٍّ من المسؤولين، وأخيرًا عثرنا على رقم الضابط المسؤول داخل المعبر، فأكد لنا أن مصر لم تغلق الحدود، ولكن الإسرائيليين احتلوا المعبر الفلسطيني ومنعوا التحرك منه وإليه. عدنا أدراجنا إلى العريش، الفندق الوحيد الذي يعمل هو فندق «أوبروي»، تبادلنا أرقام التلفونات مع السائق وطلبنا منه العودة إلينا باكرًا في اليوم التالي. أخذنا غرفة مزدوجة، وأسرعنا نفتح التلفزيون ونتابع الأحداث.

كانت ليلة غريبة. لم نغلق التلفزيون حتى غلبنا النوم، تنقلنا بين كل المحطات، قليل من «سي إن إن» وقليل من «الجزيرة»، التلفزيون المصري وتلفزيون فلسطين، ثم «البي بي سي»، ثم «الجزيرة» مرة أخرى. تابعنا الأحداث لحظة بلحظة، استطعنا الاتصال بأبي أخيرًا، بلغناه حبنا وتعاطفنا. قال لنا إنه قدَّرَ أننا حاولنا المجيء واعتذر عن عدم استطاعته مساعدتنا في الدخول. اقترحت أن نقطع المسافة بيننا سباحةً، ضحك وأبلغنا أن في هذه اللحظة بالذات بدأت طائرات العدو في قصف ميناء غزة.

اتصلنا بنهال لطمأنتها على رامي. طلبنا طعامًا في الغرفة حتى لا نترك التلفزيون. منذ أن تركَنا والدانا مع جدتي عام ١٩٧٥ لم ننَم أنا وعلي في الغرفة نفسها، حين استقررنا أخيرًا في القاهرة كان للصبيين غرفة، وأنا لي غرفة مستقلة. داعبته معلقة على رائحة جَوربيه، اختلفنا فأنا أريد إطفاء النور وهو يريده مضاءً. ضحكنا وتعانقنا بحرارة قبل أن ننام.

* * *

بعد ساعة من الدوران بصوتٍ عالٍ ومزعج لاحتكاك الآلة ببلاط الحمام الصغير، تتوقف أخيرًا جثة هامدة. تنتهي غسالة الملابس الأوتوماتيكية من آخر مرحلة للغسيل، عصرًا للمياه المتجمعة في طيات القماش، أتجه إليها بسلتي الزرقاء، أملأ السلة بالملابس

t.me/qurssan

النظيفة التي تفوح منها رائحة الصابون. أبدأ في تعليق القطع بنظام على حبل الغسيل في حديقتي الصغيرة، ألاحظ براعم شجرة الياسمين الهندي، أتخيل دورة حياة مستمرة إلى الأبد، أعود إلى غرفة نومنا، حقائب سفر كثيرة مفتوحة، مستعدة لاختزال تفاصيل حياة بداخلها إيذانًا برحيلٍ قريب.

قبلنا المنحة المقدَّمة إلى «توم» بالذهاب مدة عامٍ للبحث والتدريس في العاصمة الجزائرية. كرر أبي مرارًا دعوتنا لزيارته في غزة قبل الرحيل. قررنا الذهاب لوداعه ولمس أرض الوطن ولو كان لثلاثة أيام قصار، قبل الابتعاد جغرافيًا. لحظة أخذت القرار، بدأت دقات قلبي بالتسارع خوفًا من الحدود وشوقًا للقاء: ثلاثة أعوام لم أرَ فيها غزة، منذ بداية الانتفاضة الأخيرة.

الرحلة من باب بيتنا في الزمالك حتى باب بيت أبي في غزة لا تزيد على ست ساعاتٍ بالسيارة. يومًا ما سيصبح الأمر كذلك عندما تختفي الحدود وإجراءاتها. هو حلمٌ يراودني. آخِر مرة ذهب أخي للزيارة، استغرقت الرحلة يومين ونصف اليوم، اضطر إلى المبيت عند عائلة لا يعرفها في خان يونس، لأن سلطات الاحتلال الإسرائيلي قد أغلقت كل الطرق المؤدية من جنوب القطاع إلى شماله، ثم أكمَل الرحلة هو وحقائبه على «كارتة» يجرها حمار عبر شريط البحر، بعد أن دمر الاحتلال كل الطرق البرية.

ولكنّ هذه المرة وعدَنا أبي بالعبور والوصول إليه في اليوم نفسه. بعد رحيل ياسر عرفات ٢٠٠٤ وانتخاب أبو مازن، بعدها بشهور حلَّ هدوءٌ مؤقت على البلاد. يقرر أخي مصاحبتنا. يُقلنا تاكسي من القاهرة حتى الحدود في رفح. نبدأ الرحلة في السادسة صباحًا، إذ علينا الوصول والانتهاء من الإجراءات الحدودية في الجانب المصري قبل الواحدة، موعد إغلاق الحدود على الجانب الإسرائيلي.

في الطريق يأخذ النوم مني أخي وزوجي. أبقى وحيدة، ملتصقة بزجاج النافذة، أرقب تغير المناظر العابرة المتتالية: التلاميذ في

t.me/qurssan

طريقهم إلى المدارس، الموظفون ومعظمهم يبدو أنه لا يزال نائمًا، نقطة المرور في طريق السويس مبنية على طراز مسجد الصخرة. لأول مرة لا نركب المعدية في القنطرة لنعبر قناة السويس، بل نعتلي الجسر الخرافي الجديد. بعد الوصول إلى قارة آسيا، تبدأ الأرض في الاختلاف: أشجار زيتون، وزهرات شجر اللوز البنفسجية تتخللها أثواب البدويات المطرزة.

نصل إلى الحدود المصرية في الحادية عشرة. قاعة العبور ممتلئة بالفلسطينيين المنتظرين دخول بلادهم، والفلسطينيين الراحلين إلى بلاد الله الواسعة عبر مصر. لا يُسمح للذكور من الفلسطينيين بعد سن السادسة عشرة بالدخول إلى الأراضي المصرية. يُحجزون في المعبر حتى موعد إقلاع طائراتهم إلى خارج مصر. ويُرحلون إلى المطار في سيارة مدججة بالعسكر. أما في وجه العائدين فكثيرًا ما يغلق الإسرائيليون منفذهم ليبقى المئات نائمين على الأرض في الجانب المصري. يظلون على وضعهم أحيانًا لأسابيع. العائدون إلى غزة بعد ختم جوازاتهم ينتظرون الحافلة المرسلة من الجانب الإسرائيلي، لا يعيدون إرسالها مرةً أخرى إلى مصر لتنقل مزيدًا إلا بعد انتهاء إجراءات كل القادمين على الحافلة السابقة، التي لا تتحرك إلا عند امتلائها. تتراكم الساعات في عشرة أمتار تفصل بين الحاجزين.

يتوقف الأتوبيس عند بوابة الخروج عند الحدود المصرية، يدخل عسكري مصري عجوز يتأكد من أن الجوازات كلها مختومة بختم الخروج. يودعنا بابتسامة بشوش:

. بالسلامة.

بعدها بأمتار نتوقف عند الحاجز الإسرائيلي: كلهم مجندون، صغار السن، يختبئون وراء نظارات شمسية سوداء ووقفة متعجرفة. بتعالٍ يأخذون منا جوازات السفر، ثم يعودون ليبحلقوا في كل الوجوه للتأكد منها، ويتركوننا منتظرين في الشمس، يوشوشون بالووكي توكي، ثم يسمحون لنا بالدخول إلى المعبر.

t.me/qurssan

نُنزل حقائبنا ونصطف أمام المبنى، علينا أن نودِع الحقائب داخل جهاز معدني ضخم، ممنوع علينا مراقبة فحصها الدقيق. يعترض زوجي، لا يريد ترك كاميراته الثمينة وجهاز الكمبيوتر ليعبث بهما الجنود، وقد قيل له إن للأجانب بعض الحقوق تميزهم عن الفلسطينيين، ويمكنه أن يكون موجودًا حين تُفحص الحقائب. يدخل في معركة كلامية مع الجندي، يختفيان داخل المبنى، أنتظر في الصف مع الباقين، تختفي حقائبي وأدخل المبنى بجواز السفر فقط. أعبر بجسدي جهازًا معدنيًا آخر، تعيدني المجندة مرة أخرى وتجبرني على خلع حذائي. ننتظر كلنا نداء أسمائنا في قاعة واسعة، على كل فرد، حين يسمع اسمه، أن يقف أمام واجهة زجاجية سوداء نعرف أن وراءها من يراقبنا من دون أن نراه. حين نادوني، سألني «الصوت» إن كنت أحمل جواز دولة أخرى.

بعد ختم الجواز نذهب لاستلام الحقائب المعبوث بها أمنيًا، ليُعبث بها مرة أخرى عند الجمارك. يرفع الضابط الإسرائيلي قدميه على طاولة في وجهي، يدخن سيجارة وينفث دخانها في وجهي، يطلب مني معلومات عن باقي الركاب:

. معاخوم سجائر كتير؟

«أستهبل» وأريه أن معي علبة واحدة في جيبي، أخرج إلى الشمس الحارقة. أتوبيس آخر ينتظر انتهاء إجراءات كل مَن في المعبر حتى يتحرك عشرة أمتار أخرى إلى داخل أراضي السلطة الفلسطينية.

يخرج المواطنون تباعًا. نتقاسم الحديث ولهيب الشمس، يحاول رجل أن يحمي بجسده وجه طفله المريض من الأشعة اللاسعة، ألاعب الطفل الصغير وأحكي له القصص، يؤكد لي أبوه أن فلسطين تحتاج السلام:

. تعبنا، بدنا نعلم هالولاد ويكون مستقبلهم أحسن.

أنتظر «توم» ولا يظهر، أحاول مكالمته من دون نجاح، أهاتف أبي في غزة عله يجد حلًا. بعد ساعة ونصف يتصل بي أبي، يقول إن

t.me/qurssan

دخول «توم» غزة بجوازه الأمريكي يحتاج إلى موافقة «جيش الدفاع الإسرائيلي». أترجى أبي أن يتدخل، فيؤكد لي أن هناك موافقة على دخوله.

تمر الساعة تلو الأخرى، «توم» ليس الوحيد المحتجز داخل المبنى، وإن كان الوحيد غير الفلسطيني. التلفون المحمول في جيبي يعطيني إحساسًا وهميًّا بالأمان، أستطيع أن أخبر العالم كله بما يحدث، أبعث بالرسائل القصيرة للأصدقاء، يأتيني رد وحيد من نادية: «طمنيني لما توصلي البيت». كتبت لها عند وصولي بعدها بأربع ساعات.

t.me/qurssan

لملمت ثيابي وكاميراتي. واستقّلت من عملي في جريدة «الأهرام ويكلي»، ورحلت إلى الجزائر. رافقت زوجي الذي حصل على منحة تقدمها هيئة «فولبرايت» للتدريس والتصوير في العاصمة الجزائرية للعام الدراسي ٢٠٠٥-٢٠٠٦. حملت معي حكايات أبي وأمي حين كانا طالبين مؤمنين بقضية الجزائر، وقد جذبَتهما وناضلا في سبيلها. بين عامَي ١٩٥٩ و١٩٦٢، كانت تُعقد اجتماعات «الاتحاد العام للطلبة الجزائريين المسلمين» في شقتهما الصغيرة في فيلادلفيا. كانا يحلمان باستقلال الجزائر كخطوة على طريق نضال الجزائر أولًا، ثم فلسطين.

لم أكن أعرف عن الجزائر إلا صورًا نشرت عن الحرب الأهلية الدامية التي بدأت ١٩٩١ ودامت عشر سنوات، وذهب ضحيتها ما يقارب ٢٠٠ ألف جزائري، وبعدها جاء زلزال مدمر وفيضان في عام ٢٠٠٣.

* * *

مدينةٌ لغز. أمشي في شوارعها، في حِمى مبانيها البيضاء ذات الشبابيك الزرقاء المزخرفة حدودها بخزف ملون. طُرز معمار القرن التاسع عشر، أسماء مشيديها من الأقدام السوداء ما زالت

t.me/qurssan

الطرقات وشرفات البيوت، عالقة بين ثنايا الجدران. هل ضاعت ذاكرة ما للمدينة؟ قصص سكانها وعشاقها الأوَل ذهبت معهم. هل أقام السكان الجدد علاقة مع المدينة؟ أم يستخدمون بيوتها وشوارعها من دون أن يقيموا علاقة حميمة معها ومع أماكنها؟ أتخبط أنا الفلسطينية، من منهم الاحتلال في هذه اللحظة؟

يأخذنا زميل لزوجي في رحلة بالسيارة عبر أحياء المدينة. البحر والجبل. الخضرة والزرقة تملآن مساحة النظر، والنسيم المالح يداعب شجر البرتقال والصنوبر. هنا تشبه المدينة بيروت، وهنا تشبه البلدة القديمة في عكا، لا، هنا أقرب إلى غزة عند الوادي، أم الإسكندرية؟ تتداخل مُدني العربية، تتشابه طرز المعمار الأندلسية، والعثمانية، والحديثة. لا أشعر بنفسي غريبة، كل الحدود تلاشت في هذه اللحظة. يتشابه البحر والنخيل، والنسيم، والسماء. السماء هي السماء، ورائحة الملح في البحر واحدة، والنسمات تدغدغ كل الحواس والحب والشجن والحنين.

* * *

اكتشفت سريعًا أن كلمة «فلسطين» تفتح كل الأبواب والوجوه، وتُظهر الابتسامة. يأتي الترحيب دائمًا مصاحَبًا بعبارة «أخيار الناس». في مدينة بيجاية، حاولنا زيارة القصبة ثلاث مرات، في أوقات مختلفة من النهار، ووجدناها دائمًا مغلقة أمام الزائرين ومصفدة بالأغلال. إلى أن رأينا يومًا حارسًا بداخلها، فسمح لنا بالزيارة فقط لأني من فلسطين. أعطانا الفرصة لرؤية المدينة القديمة كاملة، بنباتاتها البرية التي لم تنظَّف من عشرات السنين والتي تلتصق بالثياب والأجساد، وبسورها العسكري من زمن الاحتلال الإسباني، والذي جُدد في زمن الاحتلال الفرنسي. من أعلى برج ترى المدينة بكاملها، والبحر. أسأل الحارس عن الجامع الصغير، ذاك المسيَّج بالأشواك وأتربة الأزمان، فيجيبني:

. هنا عاش ابن خلدون وكتب مقدمته.

t.me/qurssan

لكي أعود إلى المنزل، أمُر على مشاهد كثيرة صارت مع الوقت مألوفة لعينيّ: الشباب الحائرون في الميدان، الذين يقفون بالساعات لا يفعلون شيئًا سوى التدخين والنظر إلى السماء. لكَم فكرت في مغزى وقفتهم هذه، فهم لا يتحدثون، ولا يشاغبون الفتيات، ولا يَعرضون الخدمات، ولا حتى ينتظرون المطر. لا شيء البتة. صحفي كبير في لبنان شرح لي فرضية: هم يتناوبون على فراش ينامون عليه لا يكفي كل من بالمنزل.

أيقظني السعال فجرًا، فأسرعت في مغادرة الفراش حتى لا أوقظ زوجي. ألوان هذا الصباح مُبهجة، باركتني الشمس بلون وردي لحظة إشراقها وملامستها الغيمات والبيوت البيضاء المواجهة لشباكنا. منحتني قبلة اليوم.

* * *

يوم الجمعة في العاصمة هادئ. سيارات قليلة تمر في الشوارع، عجوز تحمل كيسًا مليئًا بالخبز، شاب يافع يركض بملابس الرياضة، حمام كثير يحط على سطح القرميد الأحمر. حضَّرتُ قهوتي وخرجت بها إلى الشرفة، عبارات حلوة كثيرة تمُر في ذهني متسارعة، تحاول جذبي إلى كتابتها قبل أن تطير. أعرف أنني حين أقرر الجلوس لاستعادتها سيكون أغلبها قد تبخر مع موجات البحر الممتد أمامي.

تجربة مدرسة الفنون الجميلة أعطت حياتي هنا معنى مختلفًا. المبنى نفسه بديع (بُني أيام «الفرنجة»)، إمكانيات التدفئة والإضاءة والكمبيوتر والعرض والمعامل متوفرة، عدد الطلبة قليل وهم على درجة عالية من الحماس والثقافة، شباب مثل الورد ولديهم أفكار ومشاريع وأحلام. قضيتُ معهم أول يوم من ورشة العمل في تنظيف المعمل وتركيب حبل لتعليق الأفلام، وسد الشبابيك لمنع تسرب بصيص النور إلى الغرفة المظلمة. بعد ساعتين من العمل، تركتهم لأدخن سيجارة. بعدها بدقائق شاركني ثلاثة من الطلاب في التدخين على عتبات السلم العريض. كانت بداية لعلاقة أكثر حميمية وعمق. بعد مضي شهر،

t.me/qurssan

صارت الورشة يومين في الأسبوع، وصرتُ أعرفهم جميعًا بالاسم.

بعد تسعة أشهر من استقرارنا، اتصلَت بي فاطمة، الصديقة الجزائرية لصديقتي منى في القاهرة. أصرت على لقائي وحددت الواحدة ظهر ذلك اليوم لزيارتي. عندما صارت الساعة الثانية ولم تصل، اتصلتُ لأطمئن أنها لم تضيع العنوان. كانت لا تزال في انتظار الحافلة المتجهة نحو المرادية حيث نسكن، وأكدَت أنها ستصل خلال نصف الساعة التالية. لعبنا الورق في انتظارها. دق جرس الباب في الثالثة والربع. جلسَت في هدوء على الكرسي الكبير فضاعت فيه من صغر حجمها، وأخذت تتحدث همسًا، فتركَنا «توم» وذهب إلى عمله على الكمبيوتر. لم يستمر ارتباك اللقاء الأول طويلًا. حكت فاطمة واسترسلت، تشكو لي صعوبات الحياة، وكابوس سنوات الإرهاب ما زال مخيِّمًا على حديثها. حكت لي أن الصحفيون معرَّضون للقتل يوميًا، وقد طالبوا الحكومة بحمايتهم، فنُقل صحفيو الجرائد إلى مدينة مغلقة، والإذاعيون إلى ثلاثة فنادق في المدينة الساحلية زيرالدة. وصفَت مرارة السنوات الثلاث التي عاشتها وحدها في غرفة في فندق، والتنقل في حافلة مصفحة، والغياب عن شوارع المدينة، والعائلة، والأصدقاء ـ الغياب عن الحياة. كانت كلما اشتاقت إلى أهلها، اتصلت بأمها وحددت موعدًا على الغداء في مطعم، وكانت تأتي متخفية وراء نظارة شمسية كبيرة، ترى أمها ساعة ثم تعود إلى الاختفاء. اسمها الإذاعي مختلف عن اسمها الحقيقي.

* * *

أنا طبعًا، وبأشكالٍ كثيرة، خارج الجزائر. ولا مانعَ في رأيي أن يكتب المرء من موقع بقائه مستبعَدًا خارج المكان. حاولتُ دائمًا فهم أي مكان زرته أو عشت فيه، حاولتُ ألا أقف على العتبات بل أن أدخل المكان وأُقيم علاقتي الحميمة به، لكنْ أعتقد أنني فشلت في ذلك. كتابتي، ومشاريع صوري، بل حياتي كلها، كانت لها علاقة وثيقة بمحاولتي اليائسة أن أكون داخل المكان تمامًا. أظن أنها عقدة الإنسان المهدد دائمًا بالطرد: من البلد، من المكان،

t.me/qurssan

وحتى من قلوب الناس، لاختلافه مثلًا. أنا لم أكتشف مشكلتي إلا عندما كبرتُ، يومَ رجعتُ بيروت لأول مرة بعد ٢٥ سنة من رحيل لم نختَره ولم نخطط له، وبدأتُ الكتابة. صناديق باندورا كلها فتحت في وجهي ـ كل المخاوف، كل الشجن، كل محاولاتي المستميتة للانتماء. لم أجد طريقة لعلاج نفسي واكتشافها إلا حين جربت أن أعبر عنها بالكتابة. هل الشجاعة في حرق الجسور والإمعان في البعد عن الوطن؟ أنا لم تكن عندي هذه الشجاعة قَطُّ. قد يكون السبب أن أحدًا لم يعترف لي بوطن، وحرق الجسور معناه حرق كل شيء أنا بنيته، ويتضمن هذا وطنًا خلقتُه لنفسي.

* * *

أستيقظ اليوم على رائحة المطر. شباك الصالون مكسور من عاصفة ليلة أمس، رعد وبرق وأمطار غزيرة أبدعت ألوانًا جديدة لخلفية البحر والميناء أمامنا، الأمواج تتكسر بقسوة على الصخور والبواخر، الأعلام الجزائرية الصغيرة المعلقة في شرفتنا مبتلة ومتطايرة. الكرسيان الخشبيان متلاصقان، والمنضدة الصغيرة أمامهما انقلبت رأسًا على عقب. أنصتُ وحدي لأذان الفجر يصلني من الجامع الأندلسي البعيد.

زاد عدد الشعيرات البيضاء في رأسي. أضفت إلى وزني عددًا من الكيلوجرامات، وإلى حسرتي على العالم أيضًا (لا أدري مقياس الوزن هنا). بكيت أمام شاشة التلفزيون على المهاجرين السودانيين الذين فضَّت قوات الأمن التابعة لوزارة الداخلية المصرية اعتصامًا لثلاثة آلاف منهم، فوصل عدد القتلى والمصابين إلى أكثر من ٣٠٠ لاجئ، من بينهم ٥٧ طفلًا. والأكثر إيلامًا كانت تعليقات الناس المعادية لهم في الشارع المصري. الوطن؟ كله، من خليجه إلى محيطه، تعيس للغاية.

انتهيت من قراءة رواية «شاهد العتمة» لبشير مفتي، وبدأت قراءة «طومبيزا» لرشيد ميموني.

حين تركتُ القاهرة وجئت إلى الجزائر، كنت قد بدأت مشروع

t.me/qurssan

تصوير عن الأرصفة في القاهرة. الحياة فوق الرصيف والتداخل بين الخاص والعام. كنت أنوي استكمال المشروع بالطريقة نفسها التي صورتُ بها طوال سنوات عملي، والتي تبدأ بتعاطفي مع الناس والمكان، أحاول أن أُقيم علاقتي الحميمة بالقضية-المكان موضوع تصويري كي أعرف كيف أصور، ودائمًا أنتصر للإنسانية. وفجأةً أحسستُ، لأول مرة في حياتي العملية، أني لست بالضرورة متعاطفة، ولست قادرة على إقامة ذلك القرب، وأني غاضبة مما يحدث على الرصيف، وأنه يوجد ناس وتصرفات تضايقني، وليس فقط العسكر الذين يضربون المتظاهرين. شعرتُ أن الشارع والرصيف يتحرشان بي كامرأة ويتعديان عليّ، وأن كثرة اللافتات، والإعلانات، والمباني القبيحة تتعدى على عينيّ، إلخ. وتوقفت عن مشروع التصوير هذا. أحسستُ أنني لا أُعَبر عن أحاسيس حقيقية، ولا أدري كيف أُظهر مشاعري تلك في الصور.

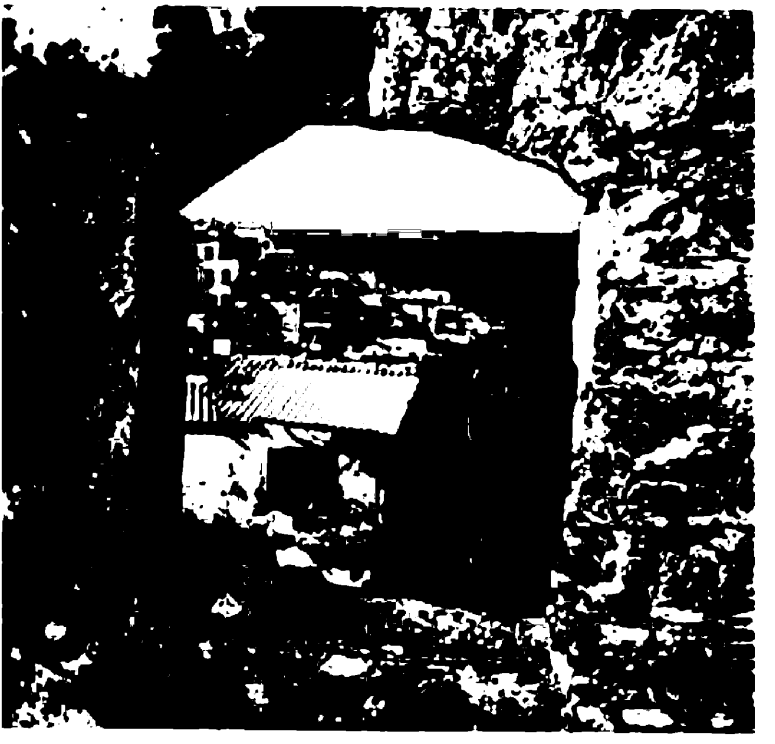

بدأ العد التنازلي لانتهاء تجربتنا في الجزائر. أفكر في الأشياء التي أريد أن أشتريها قبل أن نرحل. أول ما خطر في بالي «الكسكسييه»، أدخل محل الأدوات المنزلية وأحتار بين عشرات الأنواع الموجودة، أقرر الاستعانة بسيدتين كانتا في المحل، تركتا ما بأيديهما وقررتا أن تشرحا لي الفرق بين كل الأنواع، أنزلتا كل ما كان عند البائع من الرف العلوي: «هذه لا تنفع، ففتحات

t.me/qurssan

مصفاتها أوسع من اللازم. تلك مصنوعة من الستانلس. ميزتها جمال الشكل، ممكن أن تقدم على الطاولة بعد أن ينضج الكسكسي والمرق، نحن نستعمل هذه في طبخنا اليومي، من الألومنيوم ولكنها الأحسن».

الحوائط في العمارة رفيعة، تسمع منها تفاصيل ما يحدث عند الجيران: نار السخان حين تعلو، عمر ذو الأربع سنوات يصرخ في الحمَّام، جدته مدام مصباح تحاول تهدئته، سعالها المستمر طوال الليل، لحظة غلقها أَقفال الباب الرئيسي الثلاثة في المساء. خوف لم يتخلَّ عنها منذ سنوات الإرهاب، صرير فتح الخزانة عند الجارة المواجهة وصوت التلفزيون. تستمع إلى الفضائيات الغنائية، صوت إسدال الستائر في المساء المبكر، عويل الجارة نادية، الشابة الجميلة، في الطابق الأرضي حين يضربها أخوها المدمن والعاطل. تهدد دائمًا بقتل نفسها، طول السنة لم أسمع ما يرد عليها به، وإن كنت مرة واحدة سمعته هو يبكي بصوت عالٍ وكاد الفضول يقتلني لأعرف كيف حدث ذلك.

يدق جرس الباب. تدخل مدام مصباح مسرعة، تشدني نحو شقتها وأنا لا أزال بملابس النوم:

ـ قبل ما ترحلي لازم تتعلمي كيفاه الطيبي شويا ماكلة تاع الجزاير.

أجلس بجانبها إلى طاولة المطبخ أساعدها في عجن الخبز المطلوع وأحشو معها المقروط والبراج بالتمر. تقسم لي أنها ذات عيد عجنت ثلاثين كيلوجرامًا وحدها، كان ذلك دورها في المقاومة: كل عيد تعجن وتقلي مقروط اللوز والتمر ليرسَل إلى الأبطال المسجونين في زنازين الاحتلال. تحكي أن يوم الاستقلال استأجر عمها حافلة وأخذ العائلة كلها وجابوا البلاد المحررة:

ـ ثلاث أيام ما دخلناش للدار، حوسنا في بلادنا، بلادنا اللي تحرمت علينا ندخلوها هذه مية وثلاثين عام.

t.me/qurssan

في القاهرة أحمل «نجمة» كاتب ياسين بالإنجليزية إلى الصالون، الترجمة العربية نفدت من السوق منذ أكثر من عشر سنوات. يجتاحني حنين إلى الجزائر. أغمض عينيّ وأستعيد آخر مشهد: الزرقة المختلطة بالخضرة، والغيمة الحزينة تودعني. أضع خلفية موسيقية لخيالاتي: الشيخة ريميتي، الهاشمي قروابي، خالد، سعاد ماسي. أتصل بأبي في غزة:

. الجيش الإسرائيلي يقصف بالقرب من منزلنا، أختك الصغيرة تبكي خائفة.

أسأله عن الجزائر، يجيبني أنه ذهب لزيارتها عام ١٩٦٥، بعد الاستقلال بعامين، وكانت أول رحلة يقوم بها بعد استقراره في القاهرة. يحكي لي أنه قبَّل التراب عند وصوله إلى المطار. أجد في أحد ألبومات العائلة صورتَين باهتتين بالأبيض والأسود لأمي وأبي. شابان في تظاهرة، يحمل كلٌّ منهما لافتة تطالب بـ«الحرية لشعب الجزائر». أرسلهما لأحبائنا هناك ضمن رسالة قصيرة.

t.me/qurssan

عمَّرت تيتة فاطمة لتشهد ثلاثة وتسعين عامًا. في عيد ميلادها التسعين، احتفلت بها العائلة في البيت الكبير. البنات والأولاد والأحفاد وأولاد الأحفاد، قاطنو الإسكندرية والقاهرة، كلهم حضروا، زينوا الصالة والسفرة وجاءوا بالهدايا والحلوى. كانت تفتخر بأنها تعرف تاريخ ميلادها: أوائل يناير ١٩١٦.

ارتدت روبًا ورديًّا جديدًا، مطرزًا بورود صغيرة على الصدر وبونيه تريكو سمني. احتضنها أخي علي، ووضع شاله الصوف على كتفيها حين شعرت بالبرد. كنا في عز الشتاء، بين نوة رأس

t.me/qurssan

والتهام الحلوى وفتح الهدايا، جلس الكل في الصالة يغنون ويطلقون النكات. جلسَت على كرسي من كراسي مائدة الطعام، تحت القوس بين السفرة والصالة ليكون بإمكانها رؤية الجميع. لم تفارقها الابتسامة وإن لم تقل غير جملة واحدة في نهاية الليلة:

ـ أنا عرفت سبب إن ربنا خلاني عايشة لغاية دلوقتِ: عشان أشوف الذرية الصالحة دي وأفرح بيها.

كان جبل الرمل قد انهار حين بدأ حفرُ أساسات عمارة على حافة السور البحري. بيعت الرمال البيضاء، واختفى الجبل تمامًا بعد بناء ثلاث عمارات ملتصقة على الصف نفسه. عانت جدتي من الضوضاء بسبب كثرة أعمال البناء في الحي كله. صار الجبل مسكنًا لمئات العائلات. عانت من العابرين المجهولين الذين يقتحمون حديقتها ليلًا ونهارًا، عابثين بنباتاتها وأزهارها. تعبت من الحَر والرطوبة حتى في غرفتها البحرية، حاصرتها من كل الجهات عمارات عشوائية عالية سدت منافذ الهواء. أصابتها حالة ارتباك، فصارت تسأل الخالة الزائرة: «إنتو غيرتوا عفش البيت ليه؟»، ثم تنظر من شباك غرفتها البحرية وتسأل: «هوَ المكوجي اللي كان هناك راح فين؟». والعبارة الأكثر ترديدًا صارت: «أنا عايزة أرجع البيت . رجعوني البيت». ثم استسلمت للصمت.

t.me/qurssan

٣٦

احترقت الدنيا في غزة عام ٢٠٠٧. ساد التوتر الجو في ثاني أيام سيطرة حماس على غزة. حمدًا لله، كان أبي وزوجته وأختي في زيارة القاهرة. تتصل بي صديقتي ماجدة من خان يونس يوميًا لتطمئن وتُسري عنا، تحاول أن تصل إلى منطقة بيت لاهيا لتصور لنا ما تبقى بعد حرق بيت أبي ونهبه. الطريق طويل وخطر بين جنوب القطاع وشماله. البارحة اتصلت وقالت إنها متجهة إلى سوق فراس، الذي يعمل من السابعة حتى العاشرة صباحًا، ووعدتني بالبحث عما قد تجده من صور جدي ورسائله، أو طوابع أبي واللوحات التي كانت تزين جدران داره، وشرائها.

أتخيل سوق فراس في وسط المدينة مزدحمًا كالمعتاد. يبسط البائعون الخضر والفواكه ومستحضرات التجميل المصنعة محليًا والمعبأة في عبوات مستوردة، خردة وملابس بالية، وأشياء قديمة ضاقت بيوتها بها. صيحات وجلبة لأطفال يتجولون بين الباعة والمشترين، صناديق وعلب كرتون مكدسة، قشور فواكه وأكياس بلاستيك متناثرة هنا وهناك. ما كان يحثني دائمًا على الابتسام في السوق كان الموقف المخصص للحمير. أكدت لي ماجدة أن مكانه قد خلا.

مسلحون من الحركة التنفيذية يملأون الساحة ويُرعبون المشترين القلائل الذين استطاعوا المجيء. بائعون جدد يعرضون بضاعة أتت لتوها: لوحات فنية، صور قديمة بالأبيض والأسود، عدد كبير من ألبومات الطوابع، نياشين وشهادات، ميدالية جائزة نوبل للسلام.

t.me/qurssan

بيروت في الصيف تفوح منها رائحة الجاردينيا. لا يمكن فصل الزهور عن المدينة. احتفظتُ بتلك الوريقة جنبًا إلى جنب مع باقي تذكارات الطفولة في علبة صغيرة مزينة بزهور الجاردينيا لخمسة وعشرين عامًا. لم يخطر ببالي أن تصبح هذه العلبة كل ما تبقى لي من سنوات طفولتي في بيروت.

الصور والأصوات والروائح وظلال طفولتي تتوالى طوال الرحلة إلى بيروت. عام ٢٠٠٠ أرسلتني الصحيفة لتغطية أجواء الجنوب المحرر. قرر «توم» مرافقتي في الرحلة.

* * *

تومض الصور في ذهني بسرعة البرق. لا أستطيع تثبيت الصورة الواحدة لأكثر من بضع ثوانٍ. صباح باكر بارد في أوائل ديسمبر من عام ١٩٧٥. حقائب سفر مكومة فوق سيارة «بيجو» متجهة إلى المطار. وفي الساحة نفسها جيراننا يحزمون سيارتهم استعدادًا للسفر إلى سوريا. الهواء كثيف، سميك بتوجس. نحن في بيروت. بدأت «الأحداث» قبل بضعة أشهر. لم يعد في استطاعة أحد الذهاب إلى العمل أو إلى المدارس. يراقبني صالح صديق الطفولة

t.me/qurssan

في القاهرة: هل أخاطر وأواجه الحرج من الحديث أمام الآباء والأمهات؟ أنا سأبلغ الثالثة عشرة وصالح أكبر مني بعام. أبدأ في خربشة عنوان على قطعة صغيرة من الورق: «شارع السلاملك جاردن سيتي». يداي ترتعشان، وتنطلق سيارتهم إلى الغياب قبل أن أنتهي من الكتابة.

* * *

في المطار تستقبلنا عائلة مكداشي، أصدقاؤنا الذين جاورونا في القاهرة وقت الحرب وعادوا إلى لبنان بعدها. رفضوا السماح لنا بالذهاب إلى أحد الفنادق، وأصروا على استضافتنا في بيتهم في الحمرا.

* * *

انضممنا في اليوم التالي إلى رحلتهم العائلية المنظمة لزيارة الجنوب المحرر. استمر الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان أكثر من عشرين عامًا، ومعظم الأجيال الشابة لم ترَ هذا الجزء من البلاد. تحركت الحافلة في السابعة صباحًا من جامعة بيروت العربية، وفيها ثلاثون شخصًا من مختلف الأعمار. ما إن تركنا بيروت حتى ظهرت الساندويتشات والقهوة، ومن بعدها بدأ الغناء: أغانٍ رومانسية حديثة لعمرو دياب وإيهاب توفيق، حضرت أم كلثوم في وقتٍ لاحق بعد أن أكلنا البقلاوة والفستق الحلبي، رقصت النساء بفرح بعد أن اجتازت الحافلة علامة «اتجاه صيدا». حملت ليلى مكداشي خريطة لبنان وشرحت للجميع خط سير رحلتنا: بعد صيدا، سنتجه نحو النبطية.

أدركنا فجأة أننا نعبر أول قرية محررة، كفر رمان. أخذ الجميع يغني النشيد الوطني اللبناني بحماس كبير، اتجهت أنظار كل من كان على متن الحافلة إلى الشبابيك، كانت الأعلام اللبنانية وأعلام حزب الله تزين الطرق. سرنا عبر التلال لنتوقف في المحطة الأولى: قلعة الشقيف في أرنون، قلعة صليبية تمركز فيها المقاتلون الفلسطينيون حتى عام ١٩٨٢، وصارت نقطة مراقبة للجيش الإسرائيلي بعد الاحتلال، ودمر الإسرائيليون أجزاء كبيرة

t.me/qurssan

منها. تحركت الحافلة ثانيةً حتى أعلن السائق أننا نقترب من سجن الخيام، المكان الذي احتُجز وعُذِّب داخله أفراد المقاومة طوال اثني عشر عامًا. توقف الغناء فجأةً، وخرجنا من الحافلة في صمت. في مبنى السجن خلايا صغيرة ومظلمة، كان من المستحيل البقاء داخلها أكثر من بضع دقائق بسبب الرائحة الرهيبة. رأينا سيدة تنتحب بالقرب من زنزانة صغيرة؛ هنا قُتل أخوها.

استمعنا إلى قصص المعتقلين السابقين: التعذيب الذي تعرضوا إليه، وكيف تم تحريرهم. دليلنا في الزيارة قضى سبع سنوات في المعتقل. أخبرنا عن ذعر الأسرى يوم انسحاب إسرائيل، فقد سمعوا أصواتًا مدوية داخل السجن، واعتقدوا أنهم سيؤخَذون إلى الموت. بعد دقائق طويلة من التوتر، اكتشفوا أن سكان القرية هم من كانوا في طريقهم لتحريرهم من الأسر، حاملين أدوات المطبخ والأدوات الزراعية لكسر الأبواب، إذ كان حراس السجن قد أخذوا مفاتيح الخلايا معهم عندما فروا. عدنا إلى الحافلة ببطء.

* * *

في الأيام التالية أردت أن أرى كل مكان عرفته في طفولتي. لسنوات طوال لم أستطع رؤية أصدقاء الطفولة، ولا البيت الذي عشنا فيه، ولا ساحته الأمامية حيث تعلمت ركوب الدراجة، ولا ساحة الجراج الخلفية حيث تلقيت أول رسالة حب، ولا الجبال حيث تنزهنا كل يوم أحد، ولا مدرستي. «مدرسة البنات الأهلية»، التي تأسست عام ١٩١٦، وصارت الآن مشترَكة. حي وادي أبو جميل نفسه، حيث كانت المدرسة قائمة، غير موجود؛ دمرت الحرب المنطقة كلها، صارت مساحة عارية، ضخمة، تتخللها بعض الأشجار وبعض الهياكل لبيوت لم تعد هنا. نجا مبنى مدرستي بأعجوبة. دخلتها وسط هتاف طلاب مشجعين لمباراة نهائية لكرة السلة في الملعب. ملأت الدموع عينيَّ وأنا أدخل مكتب المديرة، هنا كرَّمتني السيدة مقدسي قرطاس، ومن قبلي كُرِّمت جدتي في العشرينيات. لم أتمكن من أن أشرح للمديرة الحالية سبب

t.me/qurssan

بكائي، طلبت منها زيارة قاعة المسرح. بدت صغيرة. في ذاكرتي كانت ضخمة، وكنت مرعوبة من «الجماهير» التي حضرت مسرحية عيد الميلاد، حين قمت بدور قزم يغني. أدرك الآن أن القاعة تستوعب بالكاد مائة شخص.

حاولت أن أدمج الواقع مع ذكريات الطفولة. ذكرى السنوات المفقودة، وأن أبدأ بتكوين صورة جديدة.

* * *

أيام الآحاد الممطرة، كان أبي يرسلني أنا وأخي إلى سينما «إمباسي» في الأشرفية لمشاهدة أفلام طرزان. أما بقية الآحاد بين ١٩٦٩ و١٩٧٥ فقضيناها كلها في نزهات إلى الجبال: عرمون، غزير، برمانا. صيف بيروت يتسم بالحرارة والرطوبة، والجبل أفضل مكان للهروب منهما. يستأجر أخوال أبي بيوتًا طوال الصيف في شاناي وبحمدون، ويرحبون بنا في عطلة نهاية الأسبوع. اليوم يصطحبني محمد مكداشي، صديق أبي، أنا وزوجي إلى شاناي. يتوقف في الطريق عند كنيسة رُممت بعد الحرب لنلتقط الصور، أجفل وأرتجف ذعرًا، أسأل عمو محمد عن اسم الكنيسة وأنا أرتعش.

أستعيد ذكرى غامضة، أعود طفلة في الثانية عشرة. أبي يوقف سيارته على جانب الطريق، يطلب من ابن خاله قيادتها بدلًا منه، يجلس بيني وبين أخي. يطلب مني بعنف إغلاق شباكي، أطيعه حزينة، فهو عادة يشجعنا على فتح الشبابيك والتلويح بأذرعنا خارجها، واستقبال أول نسمات الجبل. نصل إلى الكنيسة، نتوقف أمام مسلّحين، كمين لميليشيات حزب «الكتائب» في بلدة الكحالة. يلوّحون لنا بالمرور، فيتنفس أبي الصعداء ويتمتم:

. نجونا من الموت مرة أخرى.

* * *

بعد استحالة زيارتي إلى لبنان لسنوات طويلة، صرت أكررها كلما سنحت الفرصة. أسترجع كل مرة جزءًا من طفولتي التي تركتها

t.me/qurssan

في المدينة. في الرحلة الثالثة دُعيت لإقامة معرض استيعاديّ لصوري، تعرفت خلاله على أصدقاء جدد، وعلى نفسي، وبدأت علاقات جديدة مهدت لبداية تصالحي مع المدينة. في ٢٠١٢، صرت مدربة لبرنامج تصوير فوتوغرافي وثائقي عربي تستضيفه وتنظمه مؤسسة «آفاق» في بيروت، أستقبل عشرة مصورين جدد فائزين بالمنحة كل عام.

تعطيني سمر، ابنة خال أبي، «خالو محمود»، موعدًا في الرابعة، لتمر عليّ بسيارتها وتأخذني في جولة على معالم بيروت. تطلب مني انتظارها أمام محل «موستاش» في منطقة الحمرا. أمشي فأجد أربعة محلات باسم «موستاش» في الشارع نفسه. أعيد الاتصال بها وأقول لها إنني سأقف أمام محل «الإيه بي سي» الذي أعرفه منذ طفولتي، ولن تخطئه كلتانا.

تأتي متأخرة نصف الساعة، وتبرر التأخر بوجود مسيرة رافضة لتجديد البرلمان لنفسه للمرة الثانية من دون انتخابات، كان ذلك عام ٢٠١٤. أركب السيارة وتدير المذياع ونستمع إلى آراء المواطنين في المسألة. يقول أحدهم:

. أول مرة قالوا فيه طوارئ وما فيه مجال للانتخابات، وبعدين هالمرة شو؟

ويقول آخر:

. خلص استحلوها وبدن يجددوا لحالهن، بس نحنا إلنا رأي.

تتجه سمر بي شمالًا على الكورنيش: معالم أعرفها، وكثير من العمارات الشاهقة الجديدة، وعمارات أخرى تحت الإنشاء. نمر على مباني الجامعة الأمريكية، ثم على تمثال عبد الناصر في عين المريسة. تقف سمر عند محل «ديك» وتشتري كوبَي «نسكافيه» تدعي أنه من أطيب ما يكون. تقول إنها ستُريني أجمل جزء من الكورنيش في بيروت والأحدث: «الزيتونة باي».

«الزيتونة باي» هو الاسم الجديد والأنيق لـ«خليج الزيتونة»، حي الملاهي والبغاء الشهير والمرخص في الأربعينيات، والمعد

t.me/qurssan

للترفيه عن الضباط الفرنسيين المقيمين في «نادي الضباط الفرنسيين» الذي تحول بعد الانتداب إلى فندق «السان جورج». تقول الكتب إنه كان يستضيف المشاهير والجواسيس في الخمسينيات والستينيات. يُطل على «الزيتونة باي» أيضًا فندق «الهوليداي إن»، الذي شهد معارك عُرفت بعدها بـ«حرب الفنادق». تاريخ كامل يتركز هنا.

* * *

منعَنا الحارس الأنيق من الدخول بكوبَي «النسكافيه». طلب منا إلقاءهما في صندوق القمامة. إن أردنا احتساء القهوة، علينا شراؤها من المقاهي الأنيقة التابعة للمكان. نزلنا إلى الممشى، الذي يُطل على مرفأ يخوت، ومطاعم، ومقاهٍ، ومحلات غالية تشبه ما في مدينة دبي. في نهاية الممشى حائط قبيح يحجب البحر، وعلى يسار الممشى حمَّام سباحة صغير يحيطه حبل. يسبح رجل عجوز وحده، ويمر عليه كل المتنزهين في الممشى. بعد قليل ألاحظ المبنى خلف حمَّام السباحة، أفكر في أنني سبق ورأيته، وقبل أن أسأل سمر أتذكر أننا في حرم النادي الأرستقراطي «السان جورج». في طفولتي كان «السان جورج» مقترِنًا في ذهني بصورة متداوَلة: سكان بيروت الشرقية «الأشرار» بملابس السباحة يهللون للطائرات الإسرائيلية المقبلة لتقصفنا نحن في بيروت الغربية عام ١٩٨٢.

انتهت الحرب وأعادت إعمار بيروت شركة «سوليدير». فندق «السان جورج» مغلق الآن، غير مسموح له بالتجديد لأنه لم يتفق مع «سوليدير». حمَّام السباحة فيه مُشاع للرؤية وغير متصل بالبحر. هناك من صار أغنى من مالك الفندق، وأقرب للنفوذ والسلطة.

* * *

طلبت من سمر الذهاب بي إلى صخرة «الروشة» لأشاهد اللافتة المعلقة عليها والتي حملت أسماء شهداء غزة في الهجمات الإسرائيلية التي تجاوزت ثلاثة أسابيع في مارس ٢٠١٤. قالت إنها

t.me/qurssan

لم تسمع بها، فخفت أن تكون صورة مركبة وغير حقيقية. لكني وجدت اللافتة القماشية هناك، أهلكتها الريح والشمس، والتفَّت حول نفسها. التقطتُ الصورة التذكارية، وأسرعت عائدة إلى السيارة، وخفت أن أسأل سمر عن مغزى الحواجز وآلات الحفر والبناء المهولة التي تبني شيئًا بالقرب من الصخرة الطبيعية.

* * *

في الطريق إلى المزرعة مررنا ببيتهم، أول بيت سكناه حين أتينا من مصر في عام ١٩٦٩، وكان وقتها يُطل على ساحة سينما «بيروت». هناك بقينا شهرًا حتى عثرنا على شقة مناسبة. الساحة الآن اخترقها نفق، سينما «بيروت» حل محلها متجر للأدوات المنزلية، ومستشفى البربير مغلق ومظلم. ما زال البيت موجودًا ولكن عليه آثار الحرب، رُدمت الحديقة واحتلها بائع مثلجات. طلبت منه زيارة البيت، رفض وأشار لي إلى كلبه المخيف النابح.

نمر على محلَّي طافش وعدنان، ما زالا مفتوحَين ويعملان. يرن صوت أمي في ذاكرتي، بطلبها المعتاد:

. هاتي كيلو بن . نص على نص مع هيل . من طافش مش من عدنان.

* * *

نصل إلى البناية الجديدة التي سكنتها عائلة سمر بعد بداية الحرب الأهلية اللبنانية. نكتشف أن الكهرباء مقطوعة كما هو معتاد يوميًا في بيروت. في انتظار عودتها، نذهب لشراء ساندويتشات شاورما ولتعبئة السيارة بالبنزين. تستقبلني في المحطة صور السيسي، الذي كان في بداية حكمه. أتساءل عن السبب، فيقال لي:

. مصاروة بيشتغلوا فيها.

الماء أيضًا ينقطع في بيروت بانتظام. تضع سمر أواني بلاستيكية تحت خرطوم التكييف، تدخر الماء المتسرب منه لتنظف به

t.me/qurssan

الحمَّام وتسقي الزرع.

عند وصولنا إلى البيت، يرفض «خالو محمود» الأكل معنا، ويشكو انقطاع الماء الدائمَ. يسألني عن أفراد الأسرة فردًا فردًا. هو بلغ التسعين هذا العام، لكن ذهنه حاضر لكل العلاقات الأسَرية المتشابكة. جاءت هالة، أخت سمر، بصحبة ابنتها للقائي، دار بيننا حديث الذكريات. حاولنا سد ثغرات السنوات: من تزوج ومن أنجب. فجأة أسكتت هالة الجميع وطلبت من ابنتها تشغيل التلفزيون، فاليوم نهائي مسابقة «ملك جمال لبنان».

أودع الجميع بعد أن ارتاحوا لاختيار رجل له شارب «كلارك جيبل» ممثلًا للجمال والرجال في لبنان.

* * *

ليلة رحيلي، أطلب من صديقة أن نمُر بسيارتها على الكورنيش مجددًا. أطمئن لوجود مقهى الروضة، والملاهي، ونادي النجمة، و«اللونج بيتش»، و«السبورتنج كلوب» في أماكنها كما كانت في طفولتي. نصل إلى شاطئ «الرملة البيضا» وأقرر الترجل، أغوص بقدميَّ في الرمال الناعمة كما أحب منذ الصغر. أغض بصري عن المخلفات والأكياس البلاستيكية الطائرة، وأنفث دخان سيجارتي في اتجاه البحر.

t.me/qurssan

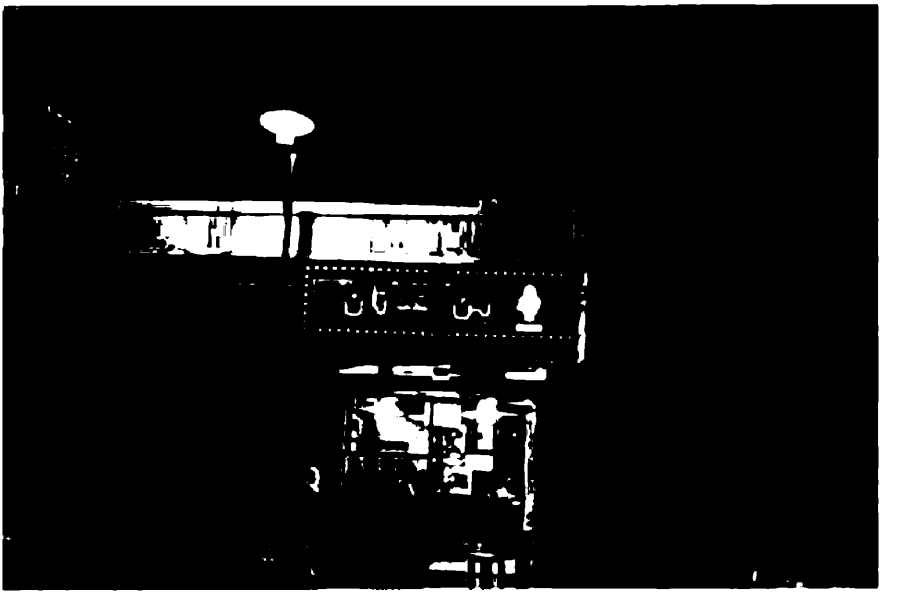

بعد أن عملت لسنوات في دار الفتى العربي مصممة لكتب الأطفال ومصوَّرة لآخر كتابين أنتجَتهما، ثم مصوَّرة في جريدة «الأهرام ويكلي»، ثم مدرِّسة للتصوير في الجزائر وبعدها في مصر، غرضت عليَّ في عام ٢٠٠٩ وظيفة رئيس تحرير الصور في جريدة مستقلة وليدة، هي جريدة «الشروق» اليومية.

قبلت الوظيفة وأنا مدركة أنها لن تترك لي وقتًا للتصوير كما أحب، ولا للعمل على قصصي ومشاريعي المصوَّرة. سعدت بالتحدي واعتبرتها فرصة لممارسة القيم المهنية في التصوير الصحفي وإرساء منطق جديد للصور في الجرائد. فرصة لتكوين ورشة تصوير مستمرة مع جيل واعد من المصورين الشباب.

بدأت في تكوين فريق المصورين من دون الاهتمام بنوع شهادتهم الدراسية، ولا بخبرتهم السابقة في التصوير الصحفي لدى الجرائد المتاحة. كان المهم بالنسبة إليَّ عشقهم للتصوير، ولفكرة توثيق وطنهم ومجتمعهم. في المقابلة الشخصية، ركزت على أهمية العمل الجماعي، موضحة أن الصورة الجيدة والصحافة اللامعة هما بالأساس عمل جماعي يتبنى تميز الفرد. من دون الإفصاح بكلام كثير، اهتممت أيضًا بقبولهم لمديرة أنثى واحترامهم لها، وشغلت نفسي معهم بتطوير فكرة الصورة كرأي

t.me/qurssan

وموقف من الأحداث.

طُبع العدد التجريبي الأول - الذي استعدَّ له الجميع، من صحفيين ومصورين ومخرجين ومحررين - على ورق حجمه سبعون في المائة من الحجم الأصلي. كنت قد أرسلتُ مصورًا من القسم، مع صحفي، لتغطية موضوع عن الحمام الزاجل، وعاد بصور معبرة عديدة، من بينها صورة بديعة للحظة انطلاق الحمام من الشرفة التي تحوي أقفاصه، وظهرت خلف أجنحة الحمام المنبسطة في الهواء العمارات العتيقة المواجهة وجزء من الشارع. اخترتها لتكون الصورة الرئيسية في الصفحة، تُفرد على سبعة أعمدة. ونزلت إلى قسم الإخراج بنفسي لأباشر رسم الصفحة، سعيدةً بتفهم رئيس التحرير وترحيبه بمبدأ أن يشرف قسم التصوير، بعد اختياره الصور المناسبة، على تنسيق الصفحات بالتعاون مع المخرجين، وعلى تقرير حجم الصور وترتيبها في الصفحة.

اختارت الصحيفة الجديدة أن تُعطي الصور قيمتها ومكانتها بالتوازي مع النصوص المكتوبة. اختارت مصورة محترفة لتكون محررة الصور، في حين أن وظيفة محررة الصور جديدة على مجتمع الصحافة المصرية. فالمتعارف عليه هو أن يختار رئيس قسم التصوير المصورين للقسم، ويساهم في تطوير إمكانياتهم، ويختار الأفضل للمهمة، ولكنه لا يشارك في تحديد الصورة المناسبة للنشر في الجريدة. السائد هو أنه يُرسل أفضل الصور إلى سكرتير التحرير، الذي يختار هو الصور بمعاونة قسم الأرشيف. قبلتُ وظيفة محررة الصور لريادتها في مصر.

شغلت طاولة بيضاوية كبيرة قسم الإخراج، وجلس حولها شباب المخرجين، وقد كُلِّفوا بمهمة تنفيذ الصفحة. أمامهم نسخ عديدة من صورة الحمام الرئيسية. بيد كل منهم مقص حاد كبير، عجبت مبدئيًا من أن يكون العمل يدويًا وليس منفَّذًا على الكمبيوتر. اقتربت من الطاولة الخشبية لألحظ أنهم يقصقصون الحمام من كل نسخ الصورة، حمامة حمامة. ظننتُ للوهلة الأولى أنني تأخرت، وأن الصفحة قد رسمت بالفعل، وأن المخرجين يتسلون بقصقصة الحمام، لكني اكتشفت أنهم يقصقصون الحمام لنشره

t.me/qurssan

طائرًا وحده من دون الصورة على الصفحة. ينفذون يدويًا ما يسمونه «ديكوباج». علا صوتي حتى اختفى من شدته. أنقذت الصورة من براثن مقص الديكوباج. فقدت أعصابي تمامًا ووعيت أن المعركة تبدأ من قبل الصفر.

* * *

يحتفل قسم التصوير بالأعياد والمناسبات. نقتسم الطعام، نغلق باب الغرفتين الصغيرتين اللتين ملأنا حوائطهما بصورنا، نستمع إلى الموسيقى، نرقص أحيانًا، نشاهد فيلمًا كل أسبوع. بحثت عن الأفلام التي أحببتها وعرضتها لهم. أول فيلم كان «كارمن»، للمخرج «ساورا»، مع أنني لم أقتنع برؤيته للحكاية. في الأوبرا، لم يُدِن «بيزيه» «كارمن» بل احتفل بتوقها إلى الحرية، وأدان الجندي الضعيف الذي وقع أسير حب التملك حتى قتلها في النهاية. نتناقش بعد كل فيلم. نذهب أيضًا لحضور المعارض الفنية والحفلات الموسيقية.

نناقش الصور وقرارات الإدارة ومشكلاتنا. أرى بوضوح أنني ممثلة أفراد القسم عند الإدارة وليس العكس.

بمرور الشهور في الجريدة اكتسبت عدة كيلوجرامات من جلوسي خلف جهاز الكمبيوتر معظم الوقت. أنتقي وأنقح صور الآخرين، لكني اكتسبت عائلة من المصورين أفتخر بها، وأثق بها.

t.me/qurssan

كنا في زيارة أهل «توم» في أمريكا. قررت زوجة أخيه أن تدعوني إلى صالون تدليك يوم عيد ميلادي. قبلها بأيام، كانت رسائل إلكترونية غريبة قد وصلتني، من مصادر مجهولة، عن الإعداد لمسيرات، وعن وسائل حماية النفس، وعن طرق الحماية من الغاز. يوافق يوم ميلادي عيد الشرطة في مصر، وطالما تعرضت للتهكم وأنا أؤكد أن عيد ميلادي هو احتفال بالقوات المصرية التي قاومت الاحتلال البريطاني، والتي رفضت تسليم أسلحتها وإخلاء مبنى محافظة الإسماعيلية للقوات البريطانية.

t.me/qurssan

الجريدة رسائل متوترة، متشككين في قدرتهم على اختيار الصور وتحريرها في غيابي، وهم مكلفون جميعهم بتصوير المسيرات المتعددة من المناطق المختلفة والمؤدية كلها إلى ميدان التحرير. حاولت تهدئتهم بأنها ستكون كالعادة وقفات صغيرة محاطة بقوات تمنعها من التحرك، وطمأنتُهم بأني سأكون أمام الكمبيوتر في انتظار صورهم. فرق التوقيت بيني وبينهم يتيح لي الاستمتاع بوصلة التدليك، ثم أكون في أتم الاستعداد لاستقبال الصور ومساعدتهم على اختيار أفضلها للنشر.

بدأتُ في استقبال الصور من أعضاء الفريق: فادي ولبنى في مسيرة دوران شبرا، أحمد في مسيرة ناهيا، روجيه في مسيرة مصطفى محمود، هبة ومحمود في ميدان التحرير صباحًا، وإيمان ومجدي لنوبة المساء. جلست أمام الجهاز تأتيني صور كثيرة متلاحقة، أختار منها وأعيد إرسالها لهم. في الصور مشهد مختلف تمامًا عن المعتاد: المسيرات ضخمة، الوجوه غاضبة، كوردونات شرطة وقنابل غاز. أتابع تحركات المصورين. محمود هرب من الشرطة بأعجوبة واختبأ في عمارة بالقرب من ميدان التحرير، ولم يستطع حتى التحدث مع الباقين أو التواصل برسائل قصيرة. مجدي في المكتب يساعد في تحرير الصور. هبة عادت مبكرة. اختيرت صورة روجيه للمسيرة الحاشدة لغلاف الطبعة الأولى تحت عنوان: «مجلس الشعب تحت حصار الشعب الغاضب». إلا إن أحمد اختفى: لم يرسل صورًا ولم يرد على تلفونه، شوهد آخر مرة في ميدان التحرير بالقرب من مطعم «كنتاكي». مرت ساعات، اتصلتُ بإبراهيم المعلم رئيس مجلس إدارة جريدة «الشروق»، الذي اتصل بدوره بإسماعيل الشاعر مساعد أول وزير الداخلية ومدير أمن القاهرة وقتها، محاولًا إنقاذ مصور الجريدة. تركتُ مهمتي في اختيار الصور ولم يعُد يشغلني سوى عودة أحمد سالمًا. سمعت عند الظهر (فجرًا بتوقيت القاهرة)، أنه نُقل إلى المستشفى، بعد كسر ذراعه واحتجازه ساعات طوال. رفض الحقنة المسكنة خوفًا من أي سائل مشبوه قد يكون فيها بدلًا من المسكن. حين اطمأننت أخيرًا على سلامة المصورين وعودتهم إلى منازلهم، أحسست بالغضب: «كده يبدأوا

t.me/qurssan

الثورة من غيري؟!».

* * *

رحلة عودتنا من تكساس، مرورًا بنيويورك ثم لندن، تصل إلى القاهرة صباح ٢٧ يناير. عندما وصلنا إلى لندن، أخبرونا أن الطيران إلى القاهرة توقف، ونقلوا الركاب إلى فندق صغير موحش بالقرب من المطار. حاولت الاتصال بأخويَّ وفشلت، فقد قطعوا اتصالات الموبايل. اتصلتُ بأبي في رام الله، فاستغرب أنني أتصل من رقم الموبايل. حاولتُ إفهامه أننا في لندن، لكنَّ في خلال الأيام الثلاثة التي علقنا بها في لندن، والتي داومت فيها على الاتصال به لأطمئن عمَّن هم في القاهرة، بقي يسألني السؤال نفسه: «إنتِ بتتصلي بالموبايل ازاي؟». حاولتُ أن أتذكر أي رقم تلفون أرضي، ولم أذكر إلا رقمًا واحدًا: رقم طنط ماري في الدقي. اتصلتُ بها لتطمئنني عن نادية وباقي الأصدقاء. المشاهد في التلفزيون مرعبة: ظلام، إطلاق رصاص، جثث تُسحل وتُشد على كوبري أكتوبر. جننتُ، كنت أريد أن أكون في القاهرة. عرضوا علينا السفر إلى شرم الشيخ، فرفضنا وانتظرنا يومًا آخر. حاول أبي وأسرة «توم» إقناعنا بأن نبقى أيامًا في لندن أو أن نعود إلى أمريكا، لكني رفضتُ بإصرار. التفتُّ إلى «توم» أؤكد له حرية قراره، فأجابني أنه قضى أغلب عمره في مصر. هي وطنه أيضًا ولن يقبل إلا بالعودة معي.

تحط الطائرة أخيرًا على أرض القاهرة صباح الأحد ٣٠ يناير ٢٠١١. الجو غرائبي: حشود مخيمة خارج أرض المطار تنتظر دورها في الرحيل. طيارتنا وحيدة بركابها العائدين من لندن، السماء ملبدة بالغيوم، وطائرات «إف ١٦» تخترق جدار الصوت. أوصلَنا السائق إلى البيت، وفي الطريق، اعتذر عن متابعة العمل ونصحنا بالبقاء في المنزل.

نضع حقائب السفر بجانب الباب ثم نحمل كاميراتنا ونتجه إلى الميدان. شارع قصر العيني مغلق، فنمشي في الشوارع الداخلية لجاردن سيتي. نعبر أول حاجز للجنة شعبية في آخر شارعنا،

t.me/qurssan

يقف فيه صديقنا محمد، يسلم علينا ويهنئنا على سلامة الوصول. في الشارع الموازي للقسم، لجنة ثانية ترفض السماح لنا بالعبور. نبدأ النقاش، يعلو صوتهم بالتهديد، يأتي محمد مسرعًا يؤكد معرفته بنا وبمكان سكننا، فيدفعونه بعنف إلى الأرض ويُطلقون الرصاص في الهواء. نعود أدراجنا، كلنا نشك في أنهم من الأهالي، إذ لم نرَهم من قبل. نغير الطريق، أنا أحفظ كل مداخل جاردن سيتي ومخارجها، بإصرار نصل إلى الميدان. أجد الأحباب كلهم هناك.

* * *

أمُر على الميدان صباحًا في طريقي إلى المكتب. الكل منشغل بكنس المكان وتنظيفه، وتجميع القمامة في أكياس كبيرة. المواصلات العامة متوقفة، أمشي في اتجاه المكتب في المهندسين عبر كوبري قصر النيل. في الطريق، يُقلني الأهالي في سياراتهم إلى أقرب نقطة ممكنة. بعد العمل وإرسال الجريدة إلى المطبعة، أعود إلى الميدان. تتشارك التجمعات ما تَوفر من طعام وأخبار. تمر أيام تكتب لنا تاريخًا جديدًا.

يوم الجمعة نمشي من بيتنا مع الجماهير في شارع قصر العيني. نصل إلى الميدان المزدحم، وأرى على المنصة قسيسًا وشيخًا يخطبان. أدخل وسط الزحام وأتأفف من قِصر قامتي، وأفكر أنه لا سبيل للتصوير إلا لو كنت فوق المنصة. أحاول التسلل عبر الأجساد. أكتشف أنهم نادوا بتسوية الصفوف. أمامي صفوف طويلة من الرجال الملتحين. أشرح لأحدهم أنني أحاول الوصول إلى المنصة. بصوت جهير يصيح بمئات الرجال:

. وسع للأستاذة!

ينشق البحر البشري، فأعبره إلى أن أصل إلى صفوف السيدات، اللواتي يفسحن لي ويساعدنني بدورهن. شيخ معمم فوق المنصة يحمل عني الكاميرا ويمد لي يده حتى يساعدني على التسلق.

t.me/qurssan

بـدأت الثـورة فـي العـام الثـاني للصـحيفة، فحملـتُ مسـؤولية إضافية: سلامة أبنائي المصورين. المصور بشكل أساسي معرض للخطر، لا يستطيع إنجاز مهمته إلا إذا كان في الصفوف الأمامية. على خط المواجهة. غير ذلك لن تكون هناك صورة.

ليلة حادث ماسبيرو في أكتوبر عام ٢٠١١، قبل أن يتدنى الصراع إلى ما بدا وكأنه بين الشعب والشعب، كان أحد مصورينا يقوم بعملـه ويـرقب المشـهد مـن خـلال العدسـة، حـين شـهد دهـس المدرعات لخمسة أجساد. ولم يستطع أن يلتقط الصورة. لم أتبين كلامه حين تمكن من الاتصال بي، لم أسمع سوى نحيبه. ظل يكرر جملـة واحـدة: «بيدهسوا الناس. بيدهسوا الناس». أمرتـه بتـرك موقع الحدث والعودة إلى منزله، ثم تداركت وطلبت منه أن يأتي للمبيت عندنا في المنزل. لم ننجح أنا و«توم» في تهدئته يومها. لا أدري حتى اليوم كيف تعالَج هذه الصدمات النفسية.

المسؤولون في الجرائد يطالبون بالصور. لا غنى عنها لأنها «تلوِّن» فراغًا ما في الصفحات. الصورة مطلوبة إذن للأسباب الخاطئة: لا لأنـها تـوثق الحـدث، ولا لأنـها موازيـة للخبـر المكتـوب فـي قـوة التعبير. ولا تتاح لها مساحة كافية تُبرز الجهد الذي بذله المصور ليدلي بشهادته المرئية في صورة محكمة. عبثًا أشرح لزملائي من المحررين أنه ليس من المفترض أن تكرر الصورة ما يقوله النص، بل إن للصورة تأثيرها المستقل والمختلف، وإن الصورة والنص معًا يعطيان بعدًا ثالثًا للخبر. لا تزال مجتمعاتنا تعاني من الأمية البصرية.

t.me/qurssan

على غير العادة، كان كوبري أكتوبر خاليًا من السيارات، وحمدت الله أن طريق الكورنيش المؤدي إلى جاردن سيتي أيضًا خالٍ. وصلت إلى منزلي في وقت مبكر. يوم السبت عادةً ما تكون الطرقات أقل ازدحامًا من باقي الأسبوع، ولكنها كانت في ذلك اليوم من يناير ٢٠١٣ شبه خالية، ويبدو أن كثيرين خافوا من آثار النطق بالحكم في قضية بورسعيد ولزموا بيوتهم. مرت ساعة وبدأ الظلام يحل، مُصاحَبًا بغيوم داكنة. وكانت تُسمَع أصوات جلبة لم أعِرها اهتمامًا. لكن بعد قليل، أصبحت الهتافات والصياح خارج منزلي، وتسلل من شباكنا المغلق غاز شفاف حارق. ارتديت سترتي وخرجت مسرعة، فوجدت أن البواب قد أغلق علينا باب العمارة بالمفتاح، كما كان يفعل في أول أيام الثورة خوفًا من الشغب والناهبين. فتحت الباب لأصطدم بمئات الشباب أمامه، وعشرات غيرهم قادمين من اتجاهات مختلفة. من أين أتوا؟ ماذا يفعلون؟ لم يُجب أحدٌ منهم عن أسئلتي، وإن طلب مني أحدهم ولاعة ليشعل سيجارته. تذكرتُ أنه لم تتبقَّ إلا سيجارتان في علبتي. خطوات تفصل باب بيتنا عن شارع قصر العيني. غاز كثيف، يحرق الأعين والأنف، حجب عني رؤية الشارع المحترق، الذي قررت الحكومة إظلامه فأطفأت مصابيحه، مضيفةً مزيدًا من الكآبة إلى المشهد. كل الدكاكين والبقالات المجاورة، وحتى الصيدلية، أغلقت أبوابها. لم يبقَ غير عم حسام المكوجي أمام دكانه الصغير، خائفًا على ماكينة الغسل السريع التي اشتراها حديثًا. اخترقتُ الغاز قليلًا لأرى ثلاثة حرائق صغيرة في الشارع، واحد منها أمام وزارة التموين. قال لي عم حسام إن بعضهم قد اقتحم الوزارة، وإن شارع قصر العيني مغلق من أوله إلى آخره، وإن طريق الكورنيش يحترق، والمترو لا يعمل، ونصحني بالعودة إلى البيت. فكرت في التقاط صورة للمشهد لكن الرؤية كانت منعدمة.

في البيت، بقيت بين التلفزيون والإنترنت. اتصلت بـ«توم» في عمله، واقتنع بنصيحتي هذه المرة، بسبب قلقه هو أيضًا:

t.me/qurssan

. ابقَ في مقر عملك بالزمالك، فلا سبيل للعودة إلى المنزل الليلة، الشوارع مغلقة وغير آمنة.

عندما تصاعدت في الخارج أبواق سيارات الإطفاء والإسعاف، فكرت طويلًا إذا كان عليَّ أن أبقى جاهزةً بملابسي تحسبًا لاضطراري إلى الخروج. أدَّى بي الإرهاق إلى العدول عن الفكرة. تعشيت وارتديت ملابس النوم، ودخلت إلى الغرفة بعد أن وضعت فوطة مبللة في حلق الشباك والفراغ تحت الباب.

لم أستطع النوم. اتصلَت بي جارتي ياسمين لتبلغني أن الأمن قد اقتحم منزل جارتنا سارة لأنها صورت من البلكونة، وأنها محتجزة في قسم قصر النيل. اتصلتُ بأخيها أحمد، الذي كان يحاول جاهدًا أن ينقذها من قضاء الليلة داخل القسم، ولكن المحاولة باءت بالفشل.

أغلقتُ الباب بالمزلاج. تساءلت كيف سأصل إلى عملي في اليوم التالي، ودهنت أنفي بالمرهم، ولعنت نفسي ألف مرة لأنني لم أخبئ علبة سجائر إضافية في مكانٍ ما.

* * *

بعد فنجانَي قهوة وكثير من السجائر أمام جهاز الكمبيوتر، أدخل لأرتدي ملابسي. كل صباح. أبحث عن جورب لونه مناسب للبنطلون أو البلوفر، أتزين بالأقراط والكحل حتى أزيل إحساسي بأني ما زلت عارية. أتأكد أن الكارت داخل الكاميرا، وأن في المحفظة بعض النقود وبطاقة الرقم القومي، وأن بتلة الوردة الوحيدة التي كانت يومًا حمراء أيضًا موجودة. أتأكد أن مفاتيحي في جيب شنطة الكاميرا الخارجي، ومعها بعض الفكة للمواصلات، وأن التلفون المحمول في جيبي. أطبع قبلة سريعة على خد زوجي قبل أن أواجه اليوم.

كل صباح قرار بالمشي في اتجاه مختلف. أيام اشتباكات فندق «سميراميس»، عليَّ المشي في اتجاه كوبري الجامعة. إن توقفتُ وتعطلتُ، فطريق قصر النيل مفتوح، أمشي في اتجاه عربة

t.me/qurssan

محروس للفول. تظهر شدة الزحام داخل شوارع جاردن سيتي الضيقة، التي ظلت تعاني لشهور من إغلاق ميدان التحرير وعلو أسوار شارع قصر العيني واحدًا تلو الآخر. أُلغيت كل اتجاهات السير القانونية، وزادت الشوارع اختناقًا.

يكون المترو أحيانًا حلًا مناسبًا. وفي هذه الحالة يجب إغلاق شنطة الكاميرا جيدًا فلا يظهر منها حزام ينم عن شخصيتها. آخر مرة حاول «توم» توثيق الأسلاك الشائكة أمام السور، أثار حفيظة الجندي المسؤول عن حراسة السلك، ووطنيته، فأصر الجندي على الإمساك به وشده داخل مكتب تحقيقات للاستجواب. حمدًا لله مرت سريعًا تلك المرة.

أنطلق إلى الجريدة. إن بدا لي سائق التاكسي لطيفًا أتحاور معه، أما الدرجة الأعلى في الحظ فهي أن يختار السائق في الراديو إذاعة تذيع أغاني لطيفة، فأُطلق العنان لخيالي لتتراقص الأفكار مع بعض النسمات وتداعب رأسي الذي بدأ يغزوه الشيب. يحلو السرحان حين أعبر النهر. أما الحظ العاثر فيتمثل في أن أتأخر بحيث تكون من نصيبي نشرة الأخبار، وعندها يبكر الغم اليومي. لشهور لم أعد أقرأ الجرائد صباحًا ولا مساءً. أكتفي بما أسمعه في اجتماع التحرير وحكايات الأصدقاء.

t.me/qurssan

أربع سنوات مرت منذ بداية الثورة. أرفض أن يذهب أيٌّ من المصورين إلى موقع الحدث أمام الكاتدرائية بالعباسية من جديد، فللتوَّ تنفست الصعداء بعودة علي ورافي سالمَين من هناك. المحصلة حتى الآن شهيدان و٢٩ مصابًا، ثلاثة منهم على الأقل من الصحفيين. يرقد زميلنا بيشوي في العناية المركزة في المستشفى القبطي.

فتنة طائفية؟ فتنة بين الشعب والشعب لا تختلف عن أحداث المقطم الدامية منذ أسابيع، وأحداث الاتحادية من قبل. نسجِّلها ونبلع مرارتنا بغياب الرؤية، ونؤكد لأنفسنا مِرارًا أن الثورة مستمرة على الظلم.

الظلم الليلة سيكون أن أبعث بأحد المصورين ليواجه الخطر وحده، بأدوات تصوير ضعيفة لن تُنتج صورًا صالحة للنشر والحفظ، ومن دون أدنى وعود بالحماية ولا التأمين، ولا حتى بالتعويض عن فقدان أي شيء. مصوِّر تلو الآخر فقدوا كاميراتهم وعدساتهم وتلفوناتهم المحمولة، ولم يعوَّضوا، ورواتبهم الضعيفة لا تكفي لشراء غيرها. لم يبقَ سوى أربع كاميرات وثلاث عدسات لقسم يعمل به اثنا عشر مصورًا.

t.me/qurssan

منهم وإهانتهم على يد قوات الأمن. لم يكلف أحد خاطره برفع سماعة التلفون معاتبًا أو حتى مطالبًا بإعادة الكاميرات إلى الجريدة.

نجلس معًا في مكتبنا الصغير. يحلو لنا أن نسميه «الأراضي المحررة». ساعات بعد انتهاء فترة العمل الصباحية. لا أحد يريد أن يذهب، ولا أحد عنده فكرة عما يستطيع أن يفعله ليكون مواطنًا صالحًا في هذه الظروف. نقتسم لقمة صغيرة، وحديثًا خفيفًا نخفي به توترنا. نحتمي بعضنا ببعض، ونحلم بوطن عادل.

شاركني «توم» محبة أن يكون بيتنا مفتوحًا، عامرًا بالأصدقاء. نطهو أكثر من احتياجنا لأن الاحتمال قائم دائمًا أن يمر أحدهم ويشاركنا الطعام. سعدنا بلقب أطلقه صديق على البيت، أنه محطة «الريست»، يمر عليه من كان بقربه. لكن الوليمة السنوية هي في عيد الشكر الذي يفضله «توم» عن كل الأعياد. عيد للشكر والامتنان للنعم التي مُنحناها. يبدأ بتحضير أطباقه الشهيرة قبل العيد بأيام، متوجًا المائدة بالديك الرومي. لطالما سعِد نبيل الصغير بمراحل الطهو. والتهام ورك الديك وحده فيما بعد. لكنْ في السنة الثالثة للثورة، صعُب العثور على ديك. قضى «توم» ونبيل يومين في البحث، إلى أن أتيا بديك من مزرعة في المعادي، وزنه ١٣ كيلوجرامًا. اضطررنا لتنظيفه في البانيو وشراء صينية كبيرة لتحوى الطير الضخم. يقوم «توم» بمراسم الاحتفال

t.me/qurssan

كاملة، يطهو بمساعدة نبيل كل الأطباق التقليدية المصاحبة: السبانخ والذرة والبطاطا الحلوة وحشوة الديك. مسؤوليتي تنظيف البيت وتزيينه، وتحضير السفرة لجمع الأهل والأصدقاء. علي يقود فقرات السهرة بعد الأكل، يختار لنا الموسيقى، يُلقي النكات ويطبل هو ورامي. في جلسات العائلة والأصدقاء العديدة في بيته يغدق علي بكرمه وضحكه على الجمع. يعزف على الجيتار أغنية يتيمة ويكررها في كل عزومة.

t.me/qurssan

٤٢

اشترى عمرو، ابن خالتي هناء، بيتًا بحديقة وحمَّام سباحة في «كنج مريوط»، وقرر لمَّ شملنا عنده في عيد الفطر. بدأ اليوم باكرًا بفول وطعمية وخبز بلدي، أتى بها المبكرون من الإسكندرية. امتلأ المكان سريعًا بأطفال العائلة وضحكاتهم، وبالبالونات والمحبة. جلسوا على الكراسي وافترشوا الحشيش وقفزوا في حمَّام السباحة، هم وعلب الترمس والكعك والبسكويت والفول السوداني.

كاريمان، ابنة خالتي الصغرى حسناء، تحضِّر لعرسها الشهر المقبل. التفَّت حولها البنات والخالات، وهن يحضِّرن طعام الغداء، ناصحات ومناقشات للزواج وسبل نجاحه وفشله. خالد، ابن خالتي هناء، جاء وعائلته من أمريكا، واستكمل الرحلة الطويلة بالطائرة حتى مطار برج العرب، خوفًا مما يسمعه عن حالات «التثبيت». وصلوا قبيل الفجر، لم يمنعه عناء الرحلة الطويلة من مناقشة حال البلد. العائلة تضم الإسلاميين والناصريين وأنصار «حزب الكنبة». اجتمعوا كلهم على التشاؤم من الحاضر والمستقبل.

هربت منهم حين بدأت مناقشة بيع بيت المندرة، ذهبتُ لألعب مع الأطفال؛ ثلاثة أجيال حاضرة. يباغتنا المغرب، يتوقف الهواء برهة. يبدأ البعض في الرحيل، قبلات وأحضان ووعود بلقاء قريب، تستغرق وقتًا ممتدًا. تُظلم السماء ثم تشع بنور نجوم متناثرة.

* * *

بحثنا عن الكنز في الرمال الممتدة من البحر حتى أعلى الجبل حيث بنى جدي بيتًا للعائلة. جاء جدي من إدكو إلى الإسكندرية للدراسة واستقر فيها. اختار منطقة بعيدة ليتمكن من شراء أرض واسعة لبيت وحديقة يزرع فيها نخل إدكو. حكت لنا تيتة عن الغرفة الصغيرة التي سكنوا فيها حتى ينتهي بناء البيت. أما نحن

t.me/qurssan

الأحفاد فكنا نتخيل كنوزًا مخبأة تحت البيت من الجهة القبلية، في حديقة شجرة الزيتون والجوافة، إذ كنا نرى تحت الأرض، أمام «خن» الفراخ والأرانب، غرفة مريبة مغلقة دائمًا بقفل. أثارت الغرفة خيالنا طويلًا، وبخاصة عندما كنا نلمح، من وقت إلى آخر، رجلًا غريبًا يخرج منها حاملًا قفصًا كبيرة ثم يختفي. لا نعرف متى يأتي ولا متى يرحل ولا ماذا يحمل في القفص. كنا نخاف الاقتراب منها لأن الأهل يحذروننا دائمًا من البراغيث القريبة من الدواجن. حاول ابن خالتي عمرو، وكان الجريء فينا، كسر القفل في يوم من الأيام، تركناه وحده وهربنا، وعاد بقصص غريبة عن شِباك صيد وحبال وقماش وتمر. سألناه عن حجم الغرفة، وشككنا في إجاباته. كل ما نعرفه عن الصيد هو الغطس في البحر قرب الصخور والعودة بالريتسا «والشاطر ما يتعورش من شوكها». تنظفها لنا تيتة، ومعها أم الخلول، وتملحها لنأكلها.

فكرنا أيضًا في الصندرة فوق الحمَّام الكبير، لم نرَ فردًا من العائلة يعتليها، وإن صعد أطول حفيد على أعلى كرسي في البيت لا يصل إلى بابها. أكيد تخفي فيها تيتة الكنز، ترفض هي أن تحضر لنا سلَّمًا وتحاول إخافتنا بأن الصندرة مظلمة ويعيش فيها الفئران. «واللي هيطلع هيقع وتتقطم رقبته».

أما بيت الجيران فنسمع عنه حكايات؛ هو بيت كبير ذو سطح قرميد وحديقة كبيرة، كان لعائلة إيطالية، عائلة «نيقولا»، وقد لعبت مع أولادها أمي وخالتي هناء. ثم اشترى البيت الأستاذ مكرم الله، ولعبث مع ابنه هاني خالتي رواء وخالتي حسناء، وكان له قطة يلعب معها الكل. هاجرت عائلة مكرم الله إلى كندا، وحرس الأرض «عرب» المنطقة. ثم اشترى البيت الأستاذ عبد الفتاح وزوجته روحية، قريبة جدي، ولعبنا نحن مع بناتهما صفاء وسحر. قبل أن يشتريه الأستاذ عبد الفتاح كان مرتعًا لمغامراتنا، نقفز فوق السور لنلعب في حديقته، باحثين عن آثار الراحلين. كنزٌ ما ضاع مني هناك. لم نكن في المندرة حين اشتراه أقارب جدي. حكت لي خالاتي أنهم رموا صناديق عديدة فيها صور عائلة «نيقولا» ومن بينها صور زفاف الأب والأم بإطاراتها

t.me/qurssan

الخشبية.

لم نجد قَطُّ الكنز الذي كنا نبحث عنه. كانت في الصندرة مجلدات «المعرفة» والكتب الدراسية لأخوالي وخالاتي. الغريب الذي كان يسكن الغرفة السرية تحت الأرض لم يكن سوى عبد الحميد، قريب جدي من إدكو، وقد كان يتاجر في منتجاتها: البلح والأقمشة والحبال للمراكب. بقينا نزور بيت القرميد كل عيد، إلى أن هدوه وبنوا عمارة عشوائية عالية مكانه.

أعي الآن كنز المحبة. نحيا بها.

t.me/qurssan

أرتدي ملابسي متعجلة الذهاب إلى المكتب، حيث لديَّ موعد مهم مع مدير الموقع الإلكتروني. يرن جرس المحمول، أتبين رقم عمتي ميسون، أرد وأنا أمشط شعري، أسمعها تنتحب. أحاول أن أفهم كلماتها المتقطعة:

. عمو أمين مات. كنا جايين بيه ياخد أكسجين. دخل العيادة على رجليه...

أركب التاكسي بالقرب من المنزل، نبقى ربع ساعة عالقين عند مخرج جاردن سيتي الوحيد. أتوتر وأعطيه أربعة جنيهات وأتركه مسرعة. أركض بجانب سور السفارة الأمريكية حتى أبلغ الكورنيش، يزيد توتري حين يتأخر مرور تاكسي شاغر. أذكِّر نفسي: «عمو أمين خلاص راح»، لا داعي للعجلة. أسلم نفسي أخيرًا لمقعد في تاكسي متهالك:

. عين شمس التخصصي من فضلك.

عمتي في ملابس بسيطة، تجلس وحدها على كرسي مكسور أمام قسم الطوارئ. تبكي، أقبِّلها، تقول:

. كان كبير السن، أنا عارفة، لكنها مفاجأة. جينا مع بعض، دخل

t.me/qurssan

أنا مش فاهمة، ده حلم.

أسألها عن أشرف، تقول:

. يُحضر تصريح الدفن.

وعن سمر، وتقول:

. في العمرة بتحاول ترجع الليلة.

أحتضنها.

يتوافد المعزون إلى المستشفى. نجلس في المقهى الصغير حتى تنتهي الإجراءات، نقرر عودة عمتي إلى المنزل لتبدل ملابسها. أذهب معها. يبقى الرجال في المستشفى ليشهدوا الغسل، على أن نلتقي في الجامع قبل العصر حيث الجنازة. أحاول إقناعها بأن تأكل، فاليوم سيطول، ترفض.

كان الجو مشمسًا وصافيًا. نصحت عمتي بالتخفف من الجاكيت الثقيل حتى لا يتعبها في المقابر، وشعرت بالذنب لاحقًا حين وصَلناها والرياح قد قامت من الصحراء باردة، متسللة إلى العظم. وقفت عمتي هناك مرتعشة. اعتذرت لها حين عدنا إلى البيت، قالت إنها لم تكن ترتعش من البرد.

أدخل المطبخ مع جيهان لنحضِّر لقمة للموجودين. أضع حلة الشوربة على النار، تأتي يارا ابنتهما مسرعة تحضر الصحون والملاعق.

نجلس بالقرب من عمتي. لم تعِ بعد حضرة الغياب. يرن جرس الهاتف من حين إلى آخر. غدًا يصل أبي إلى القاهرة من رام الله، وتصل عماتي وعمي من أمريكا بعد غد.

«كان زي النسمة»، «كان رجل طيب»، «كل الناس بتحبه».

أحضر فنجانًا من الشاي لابنة عمتي وقهوة لزائرة غريبة، أحضر كوبًا من الماء لعمَّتي، تدخل يسرا، لم أرَها مذ يوم عرسي. صارت ترتدي الحجاب. يتراءى لي عمو أمين مبتسمًا صامتًا في خلفية

t.me/qurssan

المشهد كالمعتاد. أبتسم له أنا أيضًا.

تدخل سمر مرهَقة عائدة من المطار. تهمس لي وأنا أحتضنها:

. وحشني.

. لا تقلقي فهو حاضر دائمًا في قلبك.

تُعد جيهان القهوة مرةً رابعة، وأدخن أنا سيجارة. تشير لي عمتي، أميل عليها كي أسمعها:

. عايزة أرتاح.

أميل على الباقين في العزاء:

. يلَّا نمشي.

يعرض علينا أخي أن يوصلنا في سيارته. أغلق الباب في صمت، ألمح مهند يرتدي طاقية جده والبنات يتبارين في الحكي عنه، أتذكر مشهدًا من فيلم تقيم فيه القرية بكاملها احتفالًا برحيل كبيرهم بعد أن أتم رسالته على الأرض. أدعو لعمو أمين بالرحمة. تجمعت العائلة بعد طول فراق.

* * *

أنتقل من كرسي الصالون إلى كرسي في غرفة الطعام، ثم أنتقل إلى المطبخ وأغسل كوبين متسخين في الحوض. أعود إلى الكرسي الأزرق في غرفة الطعام، أنظر من شباك الصالون إلى الشارع الفارغ، الهادئ على غير عادة. أنسى أن أُقرب أنفي وأنتشي برائحة الفلة الوحيدة التي تفتحت أول أمس.

أمسك بالتلفون وأنا أنظر إليه ساهمة، وأنسى: هل كنت أرغب في الاتصال بأحد أم في البعث برسالة؟ هل أنتظر مكالمة؟

أتصل بإخوتي وأطمئن عليهم، أتصل بالمكتب وأتابع الأخبار، أفتح الفيسبوك. مواعيد مسيرات عديدة تبدأ وتنتهي عند نقاط مختلفة، توجيهات لتفادي التحرش ومعلومات عن التعامل مع

t.me/qurssan

الاغتصاب، أرقام هواتف محمولة وأرضية للاتصال وقت الطوارئ. أغضب لمقولات وأسعد بالنكات والقدرة على المزح في أحلك الأوقات. أستغرب مرور سيارة مسرعة يصرخ مَن بداخلها «مرسي مرسي» كهتاف في ماتش كرة. طائرات حربية تمر من فوقنا.

أحاول السيطرة على مشاعر القلق والتوتر التي تصيبني قبل وقوع حدث. أنا أبرع في التكيف مع «البلا» بعد وقوعه.

أبدل ملابسي وأخرج إلى الشارع، أقرر أن أشتري بعض البقالة. معظم المحلات أغلقت أبوابها، حتى كشك السجائر، على الرغم من أن الساعة لم تبلغ السابعة مساءً. بقالتي المفضلة تخلصت من كل الأصناف التي تعطب، أشتري علبتين من التونة واثنين فول ومعجون أسنان.

أفكر أنني ربما بحاجة لمن يؤنسني الليلة. أحد غيري قلق ويحتاج مثلي إلى التغلب على التوتر. أمسك بهاتفي مرةً أخرى، هذه المرة بهدف واضح.

* * *

أتصل بعلي، الشخص الوحيد الذي استطعت أن أفشي له بسر مشكلاتي مع «توم». أشكو له. علي يأخذ المسائل ببساطة. يمزح ويُضحكني ويؤكد لي عبورها. لا أستطيع الاعتماد عليه في تفاصيل الحياة اليومية . حتى إنه لم يصلح لي جهاز الكمبيوتر وهو المهندس القدير الذي يشار إليه بالبنان!

. دي مشاكل هارد وير وانا تخصص برامج.

يضحك ويصالحني بـ«كلمتين حلوين». في الأزمات، لدى علي قدرة فائقة على تحليل الأمور وتبسيطها والابتسام.

* * *

ليلة باردة في ديسمبر ٢٠١٣، مرَّ علينا اثنان من المصورين لنذهب ونحضر فيلمًا في مهرجان السينما، «فيلّا ٦٩». في آخر شارع قصر

t.me/qurssan

العيني، قبل أن نعبر إلى المنيل، اتصل بي رامي يقول إن علي في المستشفى يعاني من أزمة قلبية. أنزلنا الشابَّين وأكملنا بالتاكسي إلى المقطم. وصلنا في ثلث ساعة.

في مدخل المستشفى، وجوه قليلة واجمة. المشهد لا يبشر بخير. وصلتُ إلى باب غرفته. باغتني طبيب الشركة التي يعمل فيها، خارجًا من الغرفة يخبط كفًّا بكف. دخلتُ. علي مسجى على سرير صغير، نائم في هدوء ملاك، زوجته رنوة ممسكة بيده برفق تهمس باسمه مرة بعد مرة. علي دافئ ومبتسم، يرتدي قميصًا أنيقًا لونه بترولي. ناديت عليه:

. اصحى يا علي. يا علي اصحى.

أخرَجوني بعد حين. جلستُ على الرصيف أمام المستشفى عاجزةً عن التفكير. تجمع الأصدقاء من كل صوب . عائلتنا الكبرى. لا أعرف كيف وصلهم الخبر، ولا كيف وصلوا إلى المستشفى الصغير في أقاصي المقطم. أبحلق في صقيع ديسمبر ولا أعي شيئًا.

علي لم يسمعني.

البيت يغمره الظلام. «توم» ونبيل، ابن علي الذي انتقل إلى بيتنا بعد موت أبيه، يغطان في النوم. أُحضر القهوة بتثاقل وأنتظر لحظة مناسبة أضيء فيها اللمبة السهاري لأبحث عن ملابسي السوداء وأذهب إلى العمل. فاتتني مكالمتان على محمولي الصامت: رئيس التحرير ورئيس قسم الأخبار. أتمتم:

. خير؟

وأعيد الاتصال بهما.

. نريد أن يسافر مصور فورًا إلى بني سويف لتغطية الحادث ولم نجد أحدًا بالمكتب.

. حاضر سأبحث عنهم.

تتضارب عندي الأفكار. مجدي ذهب إلى كفر الشيخ ليصور

t.me/qurssan

الأسماك النافقة، لبنى في معرض الكتاب، من أيضًا يعمل صباح اليوم؟ أحاول أن أتذكر. لكني أتذكر أن الفرن لا يعمل. وقرص «الميكروويف» المكسور. جدول اليوم مشحون، إيقاظ نبيل، الجريدة، المعرض السويسري، محاضرتي في مركز الصورة... يسألني «توم» لحظة استيقاظه عمَّا حل بي، فأشكو له آلام ظهري، ثم أخرج على عجل.

* * *

شارع قصر العيني مشمس ومزدحم. أمشي في اتجاه السور، أتعطل عند بائع الفول بطابوره الطويل، أنجح في المرور من بين المصطفين، أخرج أنا ورجل طويل فاز للتو بكيس طعمية يتصاعد منه البخار، أبتسم لمشهد الطعمية الساخنة وأمضي مسرعة. يتخطاني الرجل الطويل، أظنه سيمنحني قرصًا من كيسه وأبتسم لخيالي الجائع.

. رندا شعث، أنت رندا شعث!

ويمد لي يده مصافحًا.

. فكرني بنفسك، أنا آسفة.

ـ عبد الفتاح. تقابلنا كثيرًا في مؤسسة «سِمَات» وغيرها. كيف حالك؟

لا أتذكره وأجيب:

. الدنيا صعبة.

يقول لي وأنا أحث الخطى للبحث عن تاكسي شاغر:

. سلميلي على نبيل.

لا أنجح في إقناع التاكسي بالذهاب إلى المهندسين. أجد عبد الفتاح مبتسمًا في مواجهتي مرةً ثانية:

. شفتي الدنيا صعبة ازاي؟ أنا مش قصدي نبيل أنا قصدي علي.

t.me/qurssan

أنظر إلى عينيه مباشرةً:

. علي؟ علي تعيش انت. من أربعين يوم.

* * *

تجمعت العائلة في موعد إفطار الجمعة التقليدي بعد انقطاع أسابيع. في بيت علي. أول مرة من دونه. طقس اليوم الصيفي أهدأ من قيظ اليومين الفائتين. مر عليَّ رامي ليأخذني بسيارته ومعه مريم التي غابت فترة طويلة للامتحانات.

بعد وجبة الفول والبيض والجبن والزيتون، قرر رامي أخذ الطفلين إلى محل الألعاب. ابتهجا وأسرعا في ارتداء ملابسهما وصندليهما الصغيرين على عجل، حتى إن سوستة شورت نديم رفعناها على السلم. بعد رحلة الاختيار والشراء أوصلناهما إلى باب العمارة. رفضا الصعود إلى البيت؛ تعلق الطفلان بعمهما يريدان منه العودة معهما إلى المنزل وقضاء وقت أطول معهما. انهمرت دموع نديم ممسكًا بساق رامي، يحثه على الدخول. وبدأ الاثنان في البكاء.

رجوت رامي أن نطلع معهما حتى البيت. رددت:

. الله يرحمه معلش، حرام، تعيش وتجيب.

t.me/qurssan

يفتح لي رامي الباب والسيجارة في فمه. لا أستطيع كتم غضبي:

ـ أنا لسه صاحية من شوية وجبتلك البليلة سخنة، مش قادر تستنى ع السجاير لبعد الفطار؟

يضحك ويغيظني مؤكدًا أنها السيجارة الرابعة. أدخل المطبخ الصغير. طبخت فيه أمي ولائم لضيوف أبي لسنوات. أبدأ في تقطيع وتقشير الخضراوات التي أتيت بها من الحاجة بدرية.

ـ هاطبخلك شوربة خضار للغدا.

أسأله عن نتائج التحليل. يفتح موقع معمل التحاليل أمامي. ظهرت نتيجة تحليل واحد من الثلاثة التي طلبت منه، وهي تؤكد إصابته بالصفراء.

عاد من رحلة الإجازة منذ ثلاثة أيام، قضى معظمها في المستشفى متألمًا. رافقته بمشقة إلى الطبيب في اليوم التالي لعودته.

ـ أستطيع أن أذهب وحدي وأن أسوق سيارتي.

t.me/qurssan

يقولها بوهن وهو لا يستطيع حمل رأسه. أطلب سيارة «أوبر» غير عابئة باعتراضه. يتأخر الطبيب نصف ساعة، يطلب أخي خلالها العودة إلى المنزل. أؤكد له الموعد وأطالبه بالصبر. يطلب الطبيب تحاليل، ويترك التشخيص إلى ما بعد ظهور النتائج. يطالبه بالراحة التامة والأكل المسلوق. فالمؤكد التهاب كبده. المعمل في العمارة نفسها. أدخل معه وأحاول شغل تفكيره أثناء رشق الحقنة في ذراعه. لا يرد عليَّ، ويتابع بتمعن الحَقن مرتين لأخذ الكمية الكافية من الدم.

أقرر الذهاب كل صباح بالإفطار والعصير والغداء حتى يشفى. بيتي يبعد شارعًا عن بيته . بيت الأسرة والطفولة. ألعب الطاولة معه ويغلبني في كل دور. نأكل وندخل في مشادة سياسية عن سوريا. أكرر لرامي بحدة:

. أنا مش لازم آخد صف أي خرا، أنا دايمًا مؤمنة إن فيه سكة تالتة.

أكتشف عبث ما أقول.

أدخل المطبخ لغسل المواعين المتراكمة. يغضب. يصرخ ويطالبني بتركها حتى تنتهي كل الأكواب والصحون النظيفة. أتجاهله وأكمل. يصيح مرة ثانية. أطالبه بأن يكتفي بقول «شكرًا». أحاول أن أشرح له أن احتياج البشر لبعضهم ليس عيبًا، وأنه يمكنه أن يسعد بالاهتمام. أفشل.

نتائج التحاليل ظهرت اليوم. حمدًا لله هي الصفراء فقط. راحة أسبوعين وطعام صحي ويشفى. أرسل له رسالة أني قادمة بالإفطار. نأكل معًا. أسأله عما يحب للغداء. يبتسم:

. أنا رايح الشغل النهارده. وعشان خاطرك: شكرًا.

* * *

وصلن ليلًا. حملتهن شاحنة حمراء متوسطة الحجم. مالك المنزل الذي احتواهن لثلاث سنوات قرر هجرة القنابل والقمع والظلم،

t.me/qurssan

وتركهن يواجهن مستقبلًا غامضًا. تراكمن بعضهن فوق بعض شاغلات كل المساحة الخشبية في خلفية الشاحنة، تمايلن مع ضربات العجل على الأسفلت المتعرج، عبرنَ النيل مرتين، وكمائن الشرطة، وصولًا إلى بيتنا.

كنَّ عطاشى وسقيتهن. أخذت أفكر أين سيقضين ليلتهن الأولى، وزعتهن في كل مكان ممكن. إحداهن في غرفتي وواحدة في مكتب زوجي، كثيرات في الصالة الخارجية واثنتان في غرفة الطعام، تركتهن يتنفسن ويغططن في سبات بعد تعب الرحلة.

صحوت باكرًا وحضرت قهوة للجميع. عندما خرجت إلى الصالة كنت قد نسيت زائرات الليل، سبقنني في لقاء نور الصباح الباكر والنسمة الهادئة وانتصبن لملاقاتي مبتهجات. قررت، سيعشن معي دومًا. اللبلابة في مدخل الصالون واللبلابة الصغيرة فوق مكتبي، الريحانة في الحمَّام، النخلة الصغيرة في غرفة الطعام، والورود الصغيرة في الصالة. سأترك الصبارة في الشباك.

t.me/qurssan

وظيفة رئيس قسم التصوير التقليدية تضيف إلى مهامي أسخف مسؤولية: وضع جداول الحضور والإجازات، ومعاقبة المتأخرين. حلمتُ بتطوير مهنة «محرر الصور»، وعملية اختيار صور المصورين والمراسلين والوكالات، والمشاركة في تحرير الجريدة بصريًّا. آمنتُ بفكرة أن النص والصورة معًا يعطيان الرسالة الصحفية بُعدًا ثالثًا، أعمق. لكن ذلك لم يعفِني من المسؤوليات التقليدية.

فريق التصوير مبدع ومتميز. نحارب معًا: الصورة كالخبر، لها أهميتها في الفكرة والمساحة. ليست مجرد ألوان تكسر ملل سواد النص، يجب احترام مصدرها، وذكره، وكتابة اسم المصور تحتها حتى لو كان غير محترف، أو ذكر اسم الوكالة التي نشترك بها رسميًّا وندفع حق نشر صورها. عملنا وفقًا لبعض المبادئ الأساسية للمهنة: احترام الخبر، وعدم استخدام صور أرشيفية لخبر جديد، وعدم استخدام صورة تعبيرية، وعدم استخدام صور أشخاص وأماكن بعينها خارج سياقها، وعدم قص الصور وقطعها من دون الرجوع إلى المصور ليقصها هو حسب مقاييس تكوينها وجمالها. أما التعليقات على الصور فلا يجب أن تنقل وجهة نظر، بل أن تكمل الناقص من معلومات الصورة، وفيما يخص صور الحوارات، فهي تعبر عن بيئة صاحب الحوار وشخصيته.

بعد خمس سنوات من بداية العمل في الجريدة نجح فيها المصورون بجدارة، حدث أن صوَّر أحدهم تحقيقًا كاملًا، اخترت منه عشر صور متقنة التكوين والإضاءة، ومؤدية لصورة كاملة عن الموضوع، لتُنشر في الجريدة. نُشرت صورة واحدة لم أرَها من قبل، من دون ذكر مصدرها. حين سألت عن السبب كانت الإجابة:

. صدر الأمر واختيرت الصورة من محرك البحث «جوجل».

t.me/qurssan

قبل المغرب بقليل، في ممر ضيق متفرع من شارع بوسط المدينة، معتم إلا من نور المقهى الخافت وومضات سجائر العمال بالورش المحيطة، تمر بتثاقل امرأة أربعينية تحمل على كتفيها أكياسًا تبدو ثقيلة. ثيابها داكنة، حتى الطرحة التي تخفي معظم ملامح وجهها.

تتعثر خطوتها عند الأسفلت الناتئ في منتصف الدرب، فتترنح وتتهاوى على الأرض هي وأكياسها. تأتي سمية، صاحبة المطعم الصغير، مسرعة، حاملة كرسيين، تُجلسها بهدوء على أحدهما وترفع قدميها على الآخر. تخفف من عقدة الطرحة لتسمح للهواء بالمرور على وجه المرأة التي فقدت الوعي. يأتي عم أحمد بكوب ماء مسكَّر، تتبرع عابرة بزجاجة عطر ثمينة يرشونها بها لعلها تستجيب.

تفتح عينيها بعد عشر دقائق، تربت سمية على كتفها بحنان، تدعوها إلى غسل وجهها في الحمَّام، وتحمل لها أكياسها. تضع أمامها طعامًا. لم تقل المرأة سوى جملة واحدة:

. لم آكل منذ يومين.

أتركهما وأتجه إلى الجامعة الأمريكية في التحرير. كان أغسطس ٢٠١٤ حارًّا.

امتلأت ساحة نافورة الجامعة بالطلاب والأساتذة والزوار، ينتظرون دخول قاعة «إيوارت» لحضور تأبين الأستاذ أحمد سيف. وسط الأحاديث الجانبية الخافتة والهمهمات، دخل الجميع بهدوء وامتلأت كراسي القاعة الألف. اعتلى المنصة عشرة أشخاص، توسطهم علاء الذي فقدَ الكثير من وزنه. هو ومنى ومنال: العائلة كلها حاضرة إلا سناء. كان علاء المتحدث الأول بعد وقفة الدقيقة حدادًا. صوته مبحوح متحشرج. لم يبكِ، ولكن كلمته أبكت الجميع. أنهاها برسالة والده، المتمثلة في أهمية الانتصار للحق:

t.me/qurssan

. مش ضروري تنتصر في انتصارك للحق، مش لازم تبقى جاهز للانتصار للحق، لكن ضروري تنتصر للحق.

ضجت القاعة بتصفيق امتد حتى وقف الجميع وأكملوا التحية بحفاوة بالغة. غدَونا لدقائق عائلة واحدة.

* * *

جاء نوهان ليتدرب في قسم التصوير، طفلٌ في الثلاثين، يحاول مساعدة الآخرين من دون تفكير، يتبرع بسريره لزميل قادم من سفر، يوزع طعامه البسيط على الحاضرين حتى لو بقي هو من دون طعام، يعلم زميلًا جديدًا ما سبق وتعلمه هو، يبادر بالسهر في العمل حين يتقاعس الآخرون، يبقى مستعدًّا لتصوير المطلوب من القسم حتى لو كان ذلك يوم إجازته. يرفض أن تكون له أي حياة أخرى ولا اهتمامات خارج العمل. كان نوهان مكفهرًّا وتعيسًا معظم الوقت.

قسم التصوير بنيناه على المحبة. ليس بيننا نجوم. عملنا جماعي نكمل فيه نواقص بعضنا بعضًا؛ عائلة مُحبة، تحب الحياة وتهزم القهر بالضحك معًا. نوهان لم يضحك معنا. سألت نفسي مرارًا لماذا كان غاضبًا من الدنيا.

وعيت صغيرةً دروس الفدائية: تدريب رهيب على القتال، وتدريب أكثر أهمية على الدفاع عن النفس والعودة أحياء منتصرين بتحقيق الهدف. الثمن غالٍ، أحيانًا الاستشهاد أو الأسر في العملية، لكن لا ذهاب إلى الموت من دون ثمن. بطلة المراهقة كانت دلال المغربي، التي شاركت في عملية عسكرية في إسرائيل في مارس ١٩٧٨ مع «مجموعة دير ياسين»، واختطفت حافلة متوجهة من حيفا إلى تل أبيب. أذكر أنهم فحصوا أسنانها قبل أن تذهب، للتأكد أنها لن تؤلمها أثناء العملية الفدائية. نوهان قدمه مصابة ويعرج، فما فائدته في حرب؟

صور نوهان، التي يشاركها الجميع على صفحات التواصل الاجتماعي، صوَّرتها أنا، وصارت صورًا للرثاء والذكرى. مات

t.me/qurssan

نوهان. شارك في حرب ما في سوريا. «استشهد». هكذا قالوا.

* * *

لم تنتهِ بعد إجراءات سفر ابن أخي. بدأ الفصل الدراسي في غيابه، أطال من أوقات حبس نفسه منفردًا في غرفته المظلمة، وداوى ضجره ويأسه بإطالة ساعات اللعب بجهاز الكمبيوتر. أحاول بطرق شتى إقناعه بالاستحمام، وأذكره بضرورة الطعام، يعلو صوتي ولا يعيرني انتباهًا. أغلق باب غرفتي وأبكي، تلاعبني الكوابيس وتوقظني من نوم قلق متقطع. أكتشف أننا في الفجر، ابن أخي ما زال محدقًا في شاشة الكمبيوتر، نتجادل، أفقد أعصابي وأسحب الجهاز وأخبئه بعيدًا عنه، أقضي السويعات الباقية من الليل أرتجف على الكرسي الكبير في الصالون، أحضِّر القهوة، يصحو صغيري اليتيم، يرفض أن يلتفت إليَّ ويأبى أن يردَّ تحية الصباح.

استقلتُ من عملي في الجريدة وصرت أقضي اليوم بطوله بثياب النوم وشبشب زنوبة، في متناول يدي عباءة أرتديها فوق ثيابي حين يدق جرس الباب. وقليلًا ما يحدث ذلك. كي تخفي ذراعي. أمُر بتثاقل بين غرف البيت، في غرفة نبيل ملابس متسخة تحتاج إلى غسيل، على طاولة الطعام بعض الصحون من عشاء أمس، في الحمَّام جرائد الأيام الفائتة، وحذاء زوجي يظهر متخفيًا تحت الكنبة في الصالون. أنتقل إلى المطبخ وأفتح الثلاجة وأغلقها مرارًا بلا هدف، ثم أفكر في وجبة العشاء.

أترك الواجبات المنزلية وأجلس إلى جهاز الكمبيوتر. عليَّ تحضير كلمتي في مؤتمر جامعة القاهرة الخميس المقبل، دُعيت إلى إلقائها منذ شهرين. أحدق في الفراغ باتجاه الشاشة حتى تحمر عيناي. أتابع صفحات الفيسبوك من دون اهتمام حقيقي، وألعب السوليتير بتركيز شديد.

يرسل لي المصورون رسائل اشتياق واطمئنان. منذ شهور، حين بدأ المحررون المسؤولون في الجريدة إغفال أسماء المصورين في الصفحات، ونقل الصور من دون العودة إلى قسم التصوير

t.me/qurssan

ومن دون التأكد من مصادرها، حين بدأوا في الامتعاض والتذمر من صورنا التي قد لا تعبر عن رأي السلطة في الأحداث الجارية، وتطوَّر الوضع إلى رفضها وتغييرها، حين أدركت أن المطلوب مني هو أن أتراجع عن القيم المهنية التي غرزتها في قسم التصوير، صارت الخلافات بيني وبين الإدارة يومية. لن أقول لأولادي إنني أخطأت. تركت العمل بعد أكثر من خمس سنوات، وبقي أولادي فيه.

لا أذكر نحن في أي يوم من أيام الأسبوع.

يستيقظ صغيري مبكرًا على غير عادته، يقترب مني حيث يجدني دائمًا، عند الكمبيوتر. يتثاءب ويسألني:

. إيه الأخبار عندك؟ مين اتقتل ومين اتقبض عليه؟

أقرأ له العناوين أمامي:

القبض على طالب بجامعة القاهرة بحوزته كتاب «أورويل»، «١٩٨٤».

تعرض طالب ثانوي لاعتداء قوات مباحث قسم الدقي لرفضه الإهانة أثناء تفتيشه في شارع جامعة الدول.

الأنبا بنيامين: الإلحاد انتشر في مصر نتيجة لقيام ثورة ٢٥ يناير.

أقسم له إنها مزحات ثقيلة، وإن عليه تناول وجبة الإفطار قبل الخروج. يبتسم ويطيعني لأول مرة.

بعد ذهابه، أخرج إلى الشارع بالعباءة والشبشب، أصل الكشك الصغير في قصر العيني، أشتري خرطوشة سجائر.

* * *

هالتني التفاتة إلى المرآة الطويلة أمام الباب. رأيت جدتي، بروبها الأخضر القطيفة وطاقيتها الصوف، تظهر شعيرات رمادية منثورة حول وجهها الطويل، سروالها الصوف أطول من الروب، وفي قدميها جوربان، لونهما لا علاقة له بباقي الملابس، يظهران من

t.me/qurssan

تحت شبشب قماش. تفتح الباب . تدفع للمكوجي وتعطيه فوق حقه موزة وبرتقالة. تبرر له: «البوك مفيهوش فكة»، وإن كانت تؤمن أن الطعام أبرك. ترحب بهبة وورد، اللتين جاءتا لزيارتها صدفة، تبتسم فرِحة بأنها طبخت اليوم كمونية وأرزًا بالشعرية، وتتجه إلى المطبخ لتحضر الأطباق والملاعق والحلل. تحتمي بها ورد من غضب أمها، حين تُسقط كوب اليانسون على الأرض.

تغضب هبة، مؤكدة لي:

. إنتِ مش تيتة وبطلي تكبري نفسك.

أقول لها:

. ده أنا فاكرة لما البيضة كانت بريال.

تجيبني:

. ياه، ده مش من زمان قوي.

بعد تناول الطعام أستبدل الحذاء الأسود بالشبشب القماش، وبلوفرًا بالروب، وننزل نحن الثلاثة إلى سوق سعد. تتركني هبة وورد بعد شراء الخضار.

يلعب صِبية ماتش كرة في ظلمة فسحة المترو. يتزاحم المشترون على بائع الفاكهة. أقف معهم وأخرج بكيس كبير فيه كيلوجرامان مانجة هندي. يصطف البعض أمام الفرن بجانب بائع الفاكهة، ينتظرون الأرغفة الساخنة. أضع في يد الفرانة ثلاثة جنيهات وأنتظر نصيبي. لهب بخارٍ يتصاعد من الكيس يضطرني لعمل ثقوب فيه حتى لا تلتصق الأرغفة بعضها ببعض. أبتسم وأتجه إلى الشارع الكبير، يسلم عليّ بائع العصير أمام مبنى الجريدة:

. كل سنة وانتِ طيبة يا أستاذة.

أقطع الطريق متجهة إلى البيت. يناديني صاحب الفرن العجوز:

. علبة الكحك بتاعتك جاهزة، عملتهولك بالسمن البلدي.

t.me/qurssan

المكوجي على الناصية يسلمني فستاني الجديد زاهيًا في كيس.
أضع الغنائم على السلم وأُخرج المفاتيح.

t.me/qurssan

يغمرني ظلام حالك، لا أميز منه خط نور ولا معالم طريق. أظنني في البيت لكنني لا أعرف، أتحسس مكاني: طري، هل هو السرير؟ أمدد ذراعي في الفضاء الدامس حولي، أتخبط في اللاشيء، أقوم وأحاول التعرف على المكان بأماكن الأشياء التي أعرفها. إن كانت هذه غرفتي فهناك منضدة صغيرة بالقرب من السرير، أمد ذراعي مرةً أخرى فلا أجد المنضدة ولا كأس الماء. أفزع وأقف بالقرب من السرير. أبدأ بالمشي حافية، سأبحث عن معالم طريقي في الرواق الذي يصل الغرفة بالصالة الكبيرة. خطواتي قصيرة مترددة، هنا قبل الخروج من غرفتي، على يمين الباب، الكرسي الذي أترك ملابس الليلة الماضية فوقه. أمد يدي وأكاد أقع لأن الكرسي ليس هناك، ولا شماعة الملابس الخشبية القديمة! على يسارها التسريحة، والمرآة، والمشط، وأقراطي الفضية، وأدوات الزينة كلها ضاعت. أكمل إلى الرواق باحثة عن أرفف الكتب، أمد يدي مرةً أخرى وألمس الحائط. أرفف الكتب والكتب كلها اختفت، أبقي يدي على الحائط، أمسحه لعلني أمس أي شيء أعرف مكانه، أكمل المشي في اتجاه الشباك، لا ينبعث منه أي ضوء. أسمع صوت التلفزيون هناك في الصالة. مزعج، عليَّ إيقافه. أسرع الخطى قليلًا، أصل إلى مكانه. أمد يدي باحثة عن زر الإطفاء لكني أخبط الهواء، يظل صوت المذيع يتردد في الفراغ الأسود، لا أجد الجهاز.

* * *

أفيق قبل المنبه بخمس دقائق، أتذكر أني كنت مرهقة بالأمس، عدت بعد اجتماع ماراثوني لإنقاذ مساحة للفنون. الهجمات مستمرة على مساحات الفنون والتعبير المستقلة. استمر الاجتماع ست ساعات من دون أن نصل إلى حلول. استسلمت للنوم سريعًا، أكتشف أنني نسيت أن أشحن بطارية الكمبيوتر. أوصله بالكهرباء وأحضر القهوة. الغسالة أنهت دورتها ولكني لن أستطيع نشر الغسيل قبل موعدي مع القيِّمة على الأعمال الفنية، صاحبة القاعة

t.me/qurssan

التي أود عرض مجموعتي الجديدة فيها. أدخل الحمَّام بفنجان القهوة والسيجارة، وأفكر فيما سوف أرتدي للمقابلة: معظم بنطلوناتي مغسولة، أتذكر أن عليَّ أيضًا نقل الصور من الهارد إلى الجهاز. تتصل بي وتطلب تأجيل الموعد ربع ساعة، أسلم نفسي كاملة للمياه الساخنة تحت الدش.

يحين الموعد. أهرول لأصل سريعًا. أسمع تحية الصباح من «سياس» جاردن سيتي. هم ينتشرون في كل الشوارع قبل موظفي البنوك والمكاتب، ويكاد عددهم يفوق عدد السكان، ويعرفوننا جميعًا. حتى من لا يملك سيارة. أمُر على بدرية، بائعة الخضار:

- محتاجة ثوم جديد، اللي عندي كله فاضي ومخوخ... بعدين بعدين.

أحدث نفسي: «مش معقول أدخل القاعة الراقية بحزمة ثوم». القاعة التي أحببتها على بعد دقائق مشي من البيت. أحاول إقناع صاحبتها بعرض صوري الجديدة. أعرف أنني لن أستطيع التعبير عن مشروعي بكلمات وعبارات بليغة. عليَّ، وعليها، الاعتماد على قوة مشاعري والمجهود الذي بُذل في الصور واختيارها. أذكر نفسي أنها هي ذاتها متذوقة للفنون ومنسقة عامة للمعارض، وعلى أي حال سأستفيد من مناقشتنا ومن خبرتها، حتى لو رفضَت إقامة المعرض.

«الصور جميلة»، عبارة رددتها أربع مرات القيِّمة صاحبة القاعة. يأتيني هاجس تساؤلات خانة التصنيف التي يحب الكثيرون احتجازي بها: «مصورة صحفية ولَّا تسجيلية ولَّا فنانة تشكيلية؟». أطرد الفكرة سريعًا وألتفت إلى صاحبة القاعة. تقول:

- اتركيهم لي كي أفكر في طريقة عرضهم وتسعيرهم وموعد العرض. هل اخترتِ عنوانًا للمجموعة؟

أبتسم بثقة:

- لا يزول.

t.me/qurssan

* * *

ربيع ٢٠١٥، وَلدا علي الصغيران، نديم ورامي، في إجازة. وعدتهما بالذهاب إلى برج القاهرة. تأجل الموعد أول مرة لأن الطرق كانت مغلقة يوم زيارة الرئيس لمبنى القضاء العالي، ثم تأجلت يومين بسبب نزلة البرد التي أصابتني، ثم جاءت ذكرى «يوم الأرض». كنت أود الذهاب يومها إلى التجمع المقرر أمام دار الحكمة، لأنها قريبة من بيتي. الجو مشحون من الليلة السابقة. قبل أن يصلني خبر أن الأماكن المحددة سابقًا قد تغيرت لاستحالة التجمع فيها، كنت أنا بالشبشب وشنطة خضار في الشارع أستطلع الأجواء. نزلت من دون بطاقة ولا تلفون. المدرعات أمام دار الحكمة ولا حركة في الشارع. بعدها جاءت أخبار اختطاف الأمن لعدد كبير من الشباب.

كان المفترض أن يأتي بهما السائق في الخامسة عصرًا، بعد المدرسة، لنكون في البرج قبل المغرب. وددت أن يريا الأهرامات والمعالم كلها. لكن الطرق مشلولة تمامًا، لوجود ضيف رسمي آخر في المدينة. اتصلت بالسائق خمس مرات. قررت انتظارهم أمام مبنى «روز اليوسف» اختصارًا للوقت. كل مكالمة يصرخ: مرة «زحمة أنا لسه في المعادي»، مرة «أنا جنب كوبري السيدة عيشة. قربت من قصر العيني». بدأت أنا في التوتر. دخلت البقالة واشتريت زجاجة ماء. تأخروا. سأتصل مرة أخرى، يأتيني هاجس التلفون في يدي. نسيت مسح الفيسبوك منه، لم أضع كلمة سر لفتحه، اللعنة. أفكر أنني بالقرب من البيت. البقال والفرن وصاحب محل العصير يعرفونني. الآن يقبضون على الناس إذا لم يعجبهم ما كُتب على صفحتهم في الفيسبوك. هل سيدافع عني الفران لو حدث مكروه؟

وصلوا في السادسة، والطرق ما زالت مشلولة، وصلنا البرج قبل المغرب بعشر دقائق. رامي الصغير منبهر بالمناظر والهواء أعلى البرج، وضع له الحارس سلمًا عند التليسكوب ليتمكن من الرؤية، أما نديم الكبير فكان متوترًا ويريد الذهاب. فلت من يدي وركض،

t.me/qurssan

بقيت أبحث عنه أنا وأخوه دقائق أحسستها ساعات. وعدت رامي بأن نأتي مرة أخرى، فوافقني بسرعة. هو يقدّر ويعرف أن أخاه متوحد ومختلف عن باقي الأطفال.

حين نزلنا من البرج، كان مصباح متغير الألوان ينير واجهة المبنى. وقف الكبير أمامه معجبًا بتغيير الألوان على وجهه وملابسه، وحمدت الله أنه لم يعد متوترًا.

قررت أن نعود إلى البيت بالحنطور. قبل أن أفاصل في السعر كان الصغيران قد احتلا الكنبة المزينة بالورود والأشكال النحاسية الصغيرة بسعادة. بدأنا في الحركة والهواء المنعش يخبط وجوهنا نحن الثلاثة. وصلنا إلى النيل، بدأ نديم في الدندنة بصوتٍ ضعيف. فجأة ارتفع صوته يغني نشيد «بلادي». أكمل وعلا صوته:

بلادي بلادي بلادي

لكِ حبي وفؤادي

مصر يا أم البلاد

أنتِ غايتى والمُراد

غنى النشيد كاملًا بصوت قوي. شاركه رامي، وأنا ودموعي.

* * *

تبقى الشوارع مزدحمة. بعضها مغلق مثل شارع قصر العيني الموازي لشارعنا. الفرق عن الأسبوع السابق أن الأعلام السعودية اختفت وحلت محلها الأعلام الفرنسية. اختفت البذل ذات القماش اللامع، وبقي المخبرون بكروشهم المتوسطة وثيابهم المدنية. الجو حار منذ الصباح الباكر. أمشي إلى شارع عبد الخالق ثروت في الموعد المقرر، في الحادية عشرة، أنتهي من طباعة الصور في الثانية، ويبقى مشوار قصير إلى شارع البستان، لا أجد بُدًّا من العودة مشيًا على القدمين. لا سيارة تتحرك على بعد المدى، الشمس حارقة. أحاول التسلل عبر الممرات بين العمارات،

t.me/qurssan

بعد ميدان طلعت حرب، وإن طوَّل ذلك المسافة إلى المعهد. أحمل أغراضي وأكمل المشي، حقيبة الصور كبيرة، تخبط في الرصيف وتزداد في الثقل، وقد زاد من ذلك قصر قامتي. أصل إلى «ميدان الخازوق» (التحرير سابقًا) أمام مقهى وادي النيل، وأحس بتهافت روحي وعجزي عن قطع الميدان. أصل أمام المجمع وأتهاوى على الرصيف.

على النجيل تلاميذ مدرسة يلعبون كرة القدم. شابان بجانبي يدخنان وينظران إلى السماء. هنا طيرنا الطيارات الورقية التي زيناها بصور الشهداء. طيارتي حملت وجه مينا، مينا حملني أنا وكاميراتي هنا أيضًا حين عجزت عن الوصول إلى المنصة التي تحمل «شرف» أول رئيس للوزراء بعد إجبار شفيق على الاستقالة، يحلف لنا اليمين. هنا أيضًا كانت خيمتنا. قطعة أسمنتية كبيرة ـ جزء من السور ـ ما زالت تسد الرصيف عند بنك الائتمان. تتراءى لي المشاهد إلى أن أكتشف أن أحد الشباب المدخنين ينظر إليَّ. أحمل نفسي لأكمل إلى البيت، أرتطم بشاب صغير يحاول الإمساك بالكرة. يرتدي فانلة قطنية باللون الأخضر الزرعي، كُتب عليها بحروف متقطعة: «everything is gonna be ok».

t.me/qurssan

في المصعد المعدني القذر، يقبع موظف ساعاتٍ طويلة على كرسي خشبي من دون ظهر. ندخل ويضغط هو زر الدور الرابع، نصل إلى صالة صغيرة مزدحمة، تتصدرها ثلاجة كبيرة ممتلئة بزجاجات «بيبسي» ومياه معدنية، أمامها طاولات صغيرة مغطاة بمفارش عتيقة ممزقة، على كل واحدة منها فازة صغيرة بها ثلاث ورود بلاستيك حمراء. أربعة كراسي حول كل طاولة، على كل حائط ورقتان مصورتان «فوتوكوبي» تكرران الرسالتين أنفسهما، الأولى: «عذرًا ممنوع التصوير»، والثانية تمنع الشهود من تكرار شهادتهم لأكثر من عقد. نجلس ونطلب قهوة وزجاجتَي ماء. ننتظر «المشهلاتي» موظف سيساعدنا في الإجراءات. وصل قبلنا ودخل إلى مدير المصلحة، وظهر بعد ربع ساعة وطلب وثائق تحقيق شخصياتنا واختفى بها.

قبل أن ننتهي من قهوتنا نودي علينا للدخول إلى غرفة المدير. طلب منا الجلوس وسأل سؤالًا وهو ينظر إلى أوراقنا. لم يُكمل أسئلته، وأصر على استحضار مترجم المصلحة، على الرغم من تأكيدنا عدم الحاجة إليه، خاصة بعد أن سمعنا المترجم ينطق الجمل بإنجليزية ركيكة. عدنا لنكمل القهوة وننتظر دورنا مع المترجم. نودي علينا مرةً أخرى. أمام المترجم زوجان شابان،

t.me/qurssan

ديانتها، تصمت. لم تفهم السؤال. كرره بالإنجليزية ثم بالعربية. ظلت صامتة. صاح المترجم بالشاب المصري:

. روح فهمها الأسئلة والأجوبة يا إما تجيب مترجم على حسابها!

يأتي دورنا. يسأل بالعربية ثم بالإنجليزية، يدوِّن ما نقوله في ورقة، ويعيد سؤاله لي بإضافة جديدة:

. إبراء عشان دفعلك ولَّا متنازلة؟

. متنازلة.

يطلب منا التوقيع تحت أقوالنا. يطلب منا الاتجاه إلى غرفة الكمبيوتر. الكمبيوتر عطلان. يطلب منا أن ننتظر في الكافيتريا مرة أخرى.

يظهر نادل جديد. يسألنا عن طلباتنا، نؤكد أننا طلبنا وشربنا، يمتعض. عند الشباك بالقرب من السلم كراسي تشبه مقاعد الكنيسة، يمكن الجلوس عليها من دون طلبات. نتجه إليها، لكنها لا تكفينا كلنا. نقف أمام الشباك المفتوح: تمثال «لاظ أوغلي» بك في وسط الميدان، مبانٍ أثرية أغلبها مصالح حكومية، شرفة متسخة أمامنا بها أرفف مكسورة من ثقل آلاف الملفات.

يطلب منا «المشهلاتي» العودة إلى المكتب الثاني، نمر بالكافيتريا القميئة، يجلس الشاب المصري والشابة الأجنبية. ما زالت صامتة. هو أمام التابلت، المفتوح على صفحة ترجمة «جوجل» للغة الروسية. غرفة الكمبيوتر صغيرة، لا تتسع للجلوس.

. صلحنا الكمبيوتر وادينا أمر الطباعة لكن الطابعة معلقة.

يبحلق «توم» بالشاشة. يشير إلى كلمة:

. اسمي مكتوب غلط هل ممكن تصحيحه؟

يجيبه الموظف الكبير باستحالة الأمر بعد أن صدر أمر الطباعة. يؤكد له أنه حين يتم تصليح الطابعة سيصحح الاسم بالقلم على الورقة المطبوعة ثم يختمها بختم النسر.

t.me/qurssan

يقول الموثق كلامًا، ويطلب من «توم» إعادته بصوته. يقول جملة أخرى يطلب مني تكرارها بصوتي. يطلب منا الانتظار مرة أخيرة.

نقف في الممر خارج الغرفة. يبكي «توم». أحتضنه.

ندخل ثانية المصعد الحديدي. في جيب كل منا ورقة مشهودة بأننا مطلقان بعد عشرين سنة زواج.

* * *

توقف سيل السيارات عند ظهور الضوء الأحمر في نهاية كوبري الجامعة. صار الميكروباص الذي أستقله متوقفًا عند منتصف النهر تقريبًا. كان الجو دافئًا في الخارج، تتخلله بعض النسمات الباردة. أسندت ذراعي على الشباك وأخرجت وجهي. داعبته النسمات وتخللت خصلات شعري. رفعت بصري أتطلع إلى زرقة السماء، أتناسى زحمة السيارات وضجيجها، والإشارة الحمراء، وموعدي مع المحامي الذي عليَّ أن أسلمه الأوراق. لمحت عصفورًا يطير بين العمارات والمباني، ظللت أراقبه يطير، دائرًا حول أطول عمارة، إلى أن حطَّ. ثم بدأ الطيران من جديد. ظللت أتابعه بعينيَّ وهو يحلق بعيدًا حتى غاب عن بصري. بكيت، وحسدته كثيرًا.

* * *

تأخر الطبيب. الموعد كان في السابعة، وصلت في السادسة والنصف لأجد العيادة مغلقة. الموظفة التي تستقبل المرضى وتسجل أسماءهم وصلت في السابعة والربع: شابة جميلة مهتمة بملبسها وشكلها أكثر مما تحتاجه العيادة الصغيرة في الحي الشعبي. أضاءت الأنوار وجلست خلف أكوام ملفات المرضى الصفراء. لم تعد تسألني عن اسمي بعد الزيارة الأولى.

لم أصدق أنها وجدت، في دقائق معدودة، ملفي القابع في الأكوام أمامها منذ أواخر التسعينيات، حين أصابني الانزلاق الغضروفي أسفل الظهر. أعجبتُها ولا بد؛ لأنها أخذت تحكي لي عن جامعتها،

t.me/qurssan

واشتراكها في فرقة الجوالة، وعن والدتها التي كانت تعمل في العيادة قبلها، وعن حبها للتمثيل.

بدأ عدد المرضى في الازدياد. ملأوا كل الكراسي المتاحة في العيادة الصغيرة. سعدت أنني الأولى في القائمة، وإن كنت مطمئنة أن الطبيب أعطاني الموعد بنفسه ـ تمنيت فقط أن يحضر. شيخان أمامي، بالجلباب الصعيدي، غطًا في النوم. وضعت المحمول في حالة صمت وألهيت نفسي بمتابعة الفيسبوك وبتصوير النائمين خلسة. في الثامنة لم يكن الطبيب قد وصل بعد. أضاء التلفون منوهًا عن مكالمة، تعرفت على رقم أبي، تركت مقعدي المميز الذي يتيح لي رؤية الباب والمرضى والموظفة الجميلة في وقت واحد، وخرجت لأجيب.

قلت له بصوت منخفض:

. أنا عند الدكتور.

سألني إن كنت أريد تأجيل المكالمة، فأكدت له أن الطبيب لم يصل إلى العيادة بعد. أكمل حديثه وشكا لي مرضه المفاجئ: برد أدى إلى التهاب. كان في موسكو، مدعوًا كشخصية رسمية لمراقبة الانتخابات. لم أستطع منع نفسي من مداعبته قائلة:

. بتحط نفسك في مواقف بايخة.

دعوت له بالشفاء، وبالعودة سالمًا إلى رام الله. ودعني.

عدت إلى مقعدي بالعيادة. ثلاثة الآن يغطون في النوم. جلست سيدتان بعباءتين سوداوين وخواتم ذهبية كبيرة مكان الشيخين أمامي، في لحظة أمسكَت كل منهما سبحة ملونة بأحجار كبيرة وبدأتا في التسبيح. موظفة الاستقبال تثرثر، تحكي لي قصة مسلسل أعجبها. لا أستطيع التركيز فيما تحكيه. أفكر: لم يسألني بابا عن سبب زيارتي للطبيب.

* * *

لم أستطع النوم. بدأ الهجوم فى السابعة مساءً. بدأت الطبول

t.me/qurssan

تـدق حـوائط المـنزل وأعمـدة الإضـاءة وأرصـفة ثلاثـة شـوارع محيطة. ظلت تدق رأسي حتى حطمته. لم تكن حربًا متكافئة؛ فالأعـداء، فـي الفنـدق المشـبوه الملاصـق للعمـارة التـي أقطنها، يملكـون أجـهزة كبـيرة، توصل الصوت حتى قسم الشرطة في الشارع خلفنا، وأنا لا أملك سوى وجيب قلبي، وهمهمة الدعاء عليهم، التي لا تصل إلى أذني نفسها. تقلبت في سريري مرارًا، قمت وأغلقت نافذتَي الغرفة، والباب. فتحت كتابًا ثم رميته على الأرض، حملـت نفسـي ودخلـت الغـرف والحـمَّام، أغـلِق النوافـذ والأبواب حتى اختنقت، وما زالت الطبول تدق قلبي وتهشمه تمامًا. تمنيت أن يأتي ملاك ليغير من بشاعة الموسيقى ويحوِّلها إلى إذاعة الأغاني، فأم كلثوم لا بد قد بدأت وصلتها. وصلتُ جهاز الكمبـيوتر وأمسـكت برأسـي كـي لا يقـع صـريعًا أمامـه. لم يكن بإمكاني الكتابة أو العمل، سطرت جملتين باردتين للمستيقظين علـى الفيسـبوك. يقـولون إن الشـكوى لغـير الله مـذلة، ولكنـي استثنيت منها الفضاء الإلكتروني. قرأ صديق شكواي، وعرض عليَّ المبـيت عنـدهم إن أحضـرت معـي مـلاءة نظيفـة. شـكرته واعتـذرت عـن سـقوطي صـريعة مـن ضـحايا الحـرب وعـن عـدم قدرتي على المشي الآن وعبور الشارع الواسع وصولًا إلى بيته. ظننت أنني لو أكلت قد أستجمع قواي مرة أخرى وأعود لحلبة الحرب، أو لارتداء ملابسي والذهاب إلى بيت صديقي. فشلت بالطبع وعدت مهزومة إلى سريري، عاجزة حتى عن التفكير. نمت في الثالثة حين بدأت الموسيقى تخفت. في الخامسة أيقظني مواء قطة شرسة في المنور تحت شباكي صرعها الشبق.

t.me/qurssan

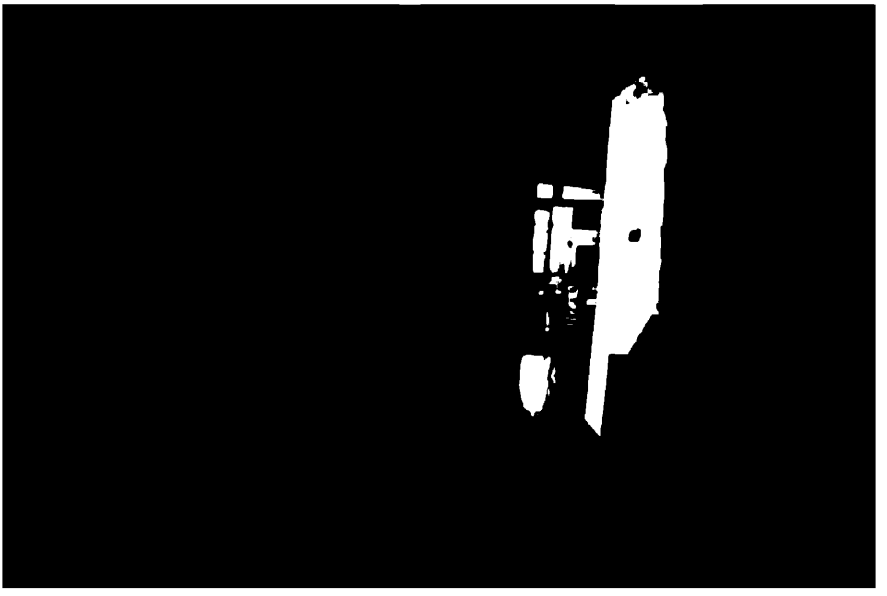

أتوتر. للمرة الثالثة اليوم ينبهني «فيرنير» أو يوجهني إلى خطأ ما أغفلته. لم أوصد باب الحديقة جيدًا. حملت كيسًا من السيارة إلى المنزل كان يجب عليَّ تركه في السيارة. لم يكن من المفترض أن أترك علبتَي الحلوى اللتين عدلت عن شرائهما أمام صندوق الدفع، بل كان عليَّ إرجاعهما إلى الرف. أخرج إلى الحديقة للتدخين. ما زال الجليد يغطي الأرض والشجر والمقعدَين. في ممر ضيق تحت السقف لم يبلل بعد، أجلس مرتعشة. أدخن وحدي في صمت. أدخل إلى دفء البيت الريفي. أنتبه إلى إغلاق الباب بدقة هذه المرة، بعد أن حرقت مرارة سيجارتين رئتَيَّ الباردتين.

أجده في المطبخ يحضر شاي العصرية. يفتتح علبة الكعك التي طلبها وحملتها لأجله من مصر. حاولت شراء كل ما تمناد: طحينة، شاي «العروسة»، جرائد وأفلام وكتب صدرت حديثًا. كدت أعجز عن طلب واحد: قمر الدين. بعد نظرات التعجب والسخرية من البقالين والعطارين بسبب طلبه في شهر بعيد عن شهر رمضان، وجدته ليلة سفري عند بقال في الزمالك. تمنى أن أحمل له مصر كلها. مضى عام ونصف العام منذ تركه مصر للسكن مع رفيق عمره «يورج» في قرية صغيرة على قمة جبل في سويسرا، وما زال يحلم بالعودة كل ليلة. صار الحلم بعيد المنال بعد أن تفاقم

t.me/qurssan

ودور الرعاية الصحية المؤتمنة فيها قليلة.

جلسنا نحن الثلاثة أمام المدفأة نحتسي الشاي. يعلو صوت طقطقة الخشب عند احتراقه، وتقطع الصمت جملة وحيدة لـ«فيرنير»:

. أريد قلبًا جديدًا.

أخفف حدة التوتر بمزحة. أسأله إن كان بإمكانه التخلص مني، ومن محبة أصدقاء العمر الذين سكنوا قلبه، ومن ذكرياتهم، إن أصبح له قلب جديد. أجاب بابتسامة أنهم علميًا يحتلون العقل لا القلب.

أعرفه منذ خمسة وعشرين عامًا. أحببته وأحبني من أول لقاء. كنت قد صورت قصة عن أسطح القاهرة أثناء اشتراكي في ورشة قصص مصورة مع مصورين من كل جريدة مصرية، واختُتمت الورشة بمعرض جماعي في قاعة الهناجر. قبل افتتاح المعرض بعشرة أيام، جاءني اتصال هاتفي في المنزل؛ لم يكن المحمول قد اختُرع بعد. عرفني بنفسه، صحفي سويسري مقيم في القاهرة، يعمل على تحرير جريدة ستوزَّع على الحاضرين في المعرض. شرح لي مهمته التي كلفته بها المؤسسة الثقافية السويسرية الداعمة لورشة التصوير والمعرض الذي أنتجته. عليه إجراء حديث صحفي معي عن مشروعي، مرفقًا ببعض الصور. أكد لي أنه لن يأخذ من وقتي أكثر من نصف ساعة. حددنا موعدًا للقاء في باحة فندق «النيل هيلتون»:

. ستتعرفين عليَّ من سترتي الجلدية الحمراء.

كانت أسئلته معَدة بنظام. دار الحديث سريعًا وبسلاسة، بعد الأسئلة والأجوبة عن التصوير ومصاعبه تطرقنا إلى مواضيع أخرى. المدن وصخبها وتاريخها، والكتب والموسيقى التي نحبها، نكتشف أفكارنا المتقاربة وهواياتنا المشترَكة ونفرح بها، لا أتذكر سوى أننا بقينا في كراسينا غير المريحة في مقهى العابرين خمس ساعات من دون أن نشعر بمرور الوقت.

t.me/qurssan

بعد الشاي يُخرج قطعة اللحم والخضراوات من الثلاجة تمهيدًا لإعداد وجبة العشاء. من بداية زيارتي يطعماني أربع وجبات كاملة كل يوم. يأتي من الرف بكتاب طهو عتيق، كان لأمه. كتبَت فيه كثيرًا من الوصفات بخط يدها، وبعضًا بالآلة الكاتبة، وأضافت إليها على مر سنوات حياتها قصاصات من المجلات والجرائد لأكلات مختلفة. يطهو ويخبز لليوم متبعًا وَصَفاتها. أخجل من عدم خبرتي. أحتفظ بكتاب أبلة نظيرة في رف في المطبخ. أهدتني إياه أمي حين بلغت الثامنة عشرة. أعجز عن الطبخ وأكره البقاء مطولًا في المطبخ.

بعد العشاء، نعتلي ثلاثتنا السلالم الخشبية إلى الدور الثاني، حيث وضعا المكتبة وجهاز التلفزيون. عمر البيت أكثر من مائة عام، جدده الصديقان ليصير مجهزًا بأحدث التقنيات في الداخل وإن احتفظ بشكله العتيق من الخارج. نشاهد معًا الفيلم المبتكر «المطلوبين الـ١٨». بعد الفيلم أصعد السلالم دورًا إضافيًا إلى غرفة الضيوف، وينزلان هما دورًا إلى غرفة نومهما المواجهة للحمَّام الكبير. أترك الشيش مفتوحًا لتوقظني أولى خصلات الشمس.

أصور قبلة الشمس للنافذة الحمراء أمامي. أنزل السلالم ببطء شديد وخفة حتى لا أوقظ صاحبَي البيت. أجد «فيرنير» قد سبقني إلى المطبخ وبدأ في إعداد القهوة. نخرج بكوبَينا إلى الحديقة، الشمس ساطعة اليوم. بدأ الجليد في الذوبان. نلمح «يورج» في الداخل يسخن الخبز للإفطار. نلج البيت الدافئ. يسحب «فيرنير» من بين ملفاته واحدًا يحوي خطاباتهما المتبادلة عبر أربعين عامًا من الحب ومشاركة الحياة، يحكي لي عن البلاد التي جمعتهما ومهمات العمل التي فرقتهما أحيانًا. أنظر إلى الاثنين بحنان، ممتنة للمحبة التي جمعتهما وللصدفة التي أضافتني عضوًا في العائلة. ينتبه «فيرنير» إلى وجود كراسة مدرسية بين الخطابات، يفتحها ويُريني رسمًا لنخلة رسمه وهو طفل في العاشرة. قضى عمره في بلاد النخيل، صحفيًا وموظفًا في الصليب الأحمر. يحلم أن يعود إليها مرة، وإن كانت الأخيرة.

لا يشكو «فيرنير» من مرضه أبدًا. رفض بإباء ذهابي معه إلى

t.me/qurssan

المستشفى التي يذهب إليها دوريًا. قرر اليوم أن يُريني القرية من أعلى قمة للجبل. نترك السيارة ونمشي بصمت في الثلج، لنصل إلى الكنيسة العتيقة وندخلها. أسمع صدى خطواتنا، أسمع دقات قلبي ولغط الأفكار، أعود لأسمع صمت تلك البقعة النائية من الأرض، وأحاول محو وخزة موجعة. كلنا سنعبر إلى رحلة أخيرة. نحن معًا الآن.

t.me/qurssan

كنا ثلاثة، أنا وأخي رامي وابنته مريم، في يوم جمعة كسول، مختلف بعد سفر نبيل، وانفصالي عن «توم»، وابتعاد زوجة أخي بولديه الصغيرين عن اجتماع العائلة. اليوم عيد ميلاد رامي، وهو لا يحب الاحتفال به. كيف نقضي اليوم؟

. نروح النادي؟ ننزل نشتري لبس العيد؟ نخرج نفطر بره؟

فشلت في اليوم السابق في شراء البيجاما التي وعدته بها . هديتي التقليدية كل عام.

. ننزل نشتري البيجاما؟

كسل وهبوط حائر على كراسي الصالون. أتوتر قليلًا وأذكره بأن يطفئ سجائره في الطفاية بدلًا من الأرض، أخاف على التنجيد من الثقوب المتوقعة، أطلب من مريم وضع المناديل في صندوق الزبالة. فجأة تهل عليَّ همة غير متوقعة:

. أنا هاطبخلكم.

اتصلنا بصديقة طفولته ميرال، ابنة طنط نادية صديقة أمي وجارتنا، لتشاركنا اليوم. اشترك الجميع في التحضير.

t.me/qurssan

حين صار الطعام جاهزًا جلسنا حول المائدة. أكلنا وشربنا. بقينا ساعاتٍ بعد أن انتهينا من الأكل نذكر قصص الطفولة ونضحك. بعدها قمت لقلي القطائف المحشوة بالجبن. انتقلنا إلى الصالون، أكملنا الضحك والنكات. تركَتنا ميرال وعدنا ثلاثة. لعبنا مع مريم الألعاب الورقية التي كنا نلعبها صغارًا. أكلنا ما تبقى من الفواكه. امتلأت الطاولة الصغيرة بالقشور. قامت واختارت من خزانتي ما يعجبها من ملابسي لتستحوذ عليها . في سن أصغر حرمتني من صنادلي وأحذيتي. صارت شابة يافعة وظلت قدمي صغيرة. شربنا القهوة المحوجة. ضحكتُ حين دلق أخي الفنجان على المفرش المطرز وقلتُ خيرًا. لعبة الكوتشينة السحرية تحولت إلى صواريخ طائرة بيننا. ضاعت ثلاث ورقات.

مر نهار وليل. نتبادل الأحضان ويودعانني. أترك البيت متونسًا بكركبته ومواعينه وقشور الفواكه كما هي وأتجه إلى الحمَّام. قبل النوم أترحم على الغائبين، كانوا يضحكون معنا.

* * *

على الرغم من انخفاض درجات الحرارة والرطوبة (أدركه من درجة تجعيد شعري واختفاء أسراب النمل من المطبخ)، ما زال هناك ثقل على أنفاسي. أدور في أرجاء المنزل المكركب باحثةً عن شيء ما. أكتشف أني أسعى إلى صفاء نفسي. أعود إلى جهاز الكمبيوتر حيث تصدح الموسيقى، أرى صورة لشلة القهوة في محمد محمود تمت مشاركتها في التو على الفيسبوك. عمر في المكان نفسه. في الكراسي الملتصقة بالحائط في آخر القهوة أمام السنترال، مكانه يصبح مركزًا يتجمع فيه الأصحاب، تتغير الوجوه كل ليلة فيما عدا رفيقَي عمره، عم كمال وعلاء. كلهم عابسون رغم أن التعليق على الصورة عن احتفال ثالث أيام العيد. أمسك بهاتفي وأتصل بأحدهم. أقول إنني جائعة وإنهم لو قبلوا مشاركتي الطعام سأنضم. يعدني عمر بشراء كشري يكون جاهزًا وقت حضوري. أرتدي فستاني على عجل، أبتسم لأول مرة منذ زمن وأتذكر أن أولادي المصورين يصفون قهوتنا المعتادة بالكئيبة. شلة مكتئبين على القهوة الكئيبة إذن. ربما تنتج

t.me/qurssan

«العكوسات» في نهاية الليل إحساسًا مختلفًا. ألتهم علبة الكشري وأتـذكر أنـها وجبتـي الأولـى اليوم. بعـد انـهماكي فـي الصـحن المشـطشط، ألتفـت إلـى الـوجوه العابسـة، وأفكـر فـي الرحيـل. يدعوني صديق الجامعة «بيير» إلى مشاهدة لوحاته الجديدة. نمشـي فـي الشـوارع الداخلية هاربين من صخب الميدان. بعد انغماسي في الرسومات والألوان نخرج إلى الشرفة الواسعة. من هنا أنزلنا بيان الثورة الأول في لافتة قماش بطول العمارة. ومن هنا جاءت آلاف الصور موثِّقةً الأحداث اليومية. كانت الشقة تعج يوميًا بمئات اللاجئين. اللافتات الاسترشادية التي علقها «بيير» على الأبواب عن تنظيم دخول الغرف والحمَّام والشرفة بدأت في الاصفرار والتمزق.

نشترك في تدخين سيجارة. يزدحم الميدان بالعائلات المحتفلة بالعيـد مـن دون ميزانيـة كبـيرة، ويصـخب بـأبواق تصم الآذان، لسيارات تدور بلا هدف حول خازوق العلم الذي يتوسط الكعكة الحجرية. صمت طويل يقطعه صديقي بجملة واحدة:

. هنموت ومش هنشوف حاجة تانية.

أخلع نظارتي لتشويش الرؤية الواضحة أمامي. تختلط الأصوات والألـوان فـي غمـوض، تُطـير نسـمات الخـريف فستاني، وتعبث بشعراتي القليلة.

t.me/qurssan

تيتة فاطمة كانت تفخر بأنها شهدت على أجيال أربعة. رحلت قبل أن تشهدهم يبيعون بيتها. أقمنا سرادق عزائها في حديقتها. بعد رحيلها بسنتين، احتل الحديقة بلطجي معه عدد كبير من العمال، اقتحموها وبدأوا في دق أساسات أربع عمارات. أبلغت خالتي القسم والحي وكتبت محضرًا، لكنهم استكملوا البناء. حين استنجدت بالعائلة بعدها بأسابيع، كان الحل الوحيد أن نأتي ببلطجي أقوى من البلطجي المقتحم، ليهد ما تم بناؤه. حاولنا الاجتماع في العيد كعادتنا، لكن أعمال البناء جرحت حرمة البيت وخربت الاحتفال. صارت الأصوات المطالبة ببيع البيت واضحة وحجتها قوية.

يوم تفريغ بيت المندرة من محتوياته قبل تسليمه إلى المشتري، اتصلت بي خالاتي الأربع يسألنني عما أريد الاحتفاظ به كذكرى. طلبت المرآة الخشبية على شكل قوقعة، التي شهدت على كل لقاءاتنا من موقعها في الصالة. حلمت أن تكون حفظت لي الضحكات والونس.

عند حافة ذلك الزمن البعيد تجلس جدتي على الأريكة نفسها، تحكي لنا الحكايات، تطالع بين الحين والآخر بطرف عينيها صورتنا في المرآة. أجلس أمامها، أطالع الفرق بين الأصل

t.me/qurssan

والصورة. بين نفسي هنا، ونفسي هناك، وجدتي هنا، وجدتي هناك. لحظات تصارع الزمن وتجد لنفسها مكانًا في الذاكرة، وسط اللحظات المهدرة التي تمر مثل غيرها. كانت تلك إحداها. المرآة والحكاية وأنا وجدتي. ابتسمَت هي وسألتني عما أراه فأجبتها:

. شايفة البحر.

ضحكَت. أنا لا أدري من أين أتت تلك الإجابة. لماذا البحر؟ كيف البحر؟ لكنها الفكرة الأولى التي قفزت إلى ذهني، اختزنت المرآة ملايين الصور بعد تلك الصورة، ولم تُتم جدتي حكاياتها. وجدت نفسي، بعد ذلك بعقود، أبحث عن البحر في المرآة نفسها، بعد أن اعتلاها بعض الصدأ على الجوانب. وجدت البحر يكسر الحدود والمسافات، والجدار العازل الذي يقف وراء المرآة مباشرةً، محاولًا إيهامي بأن حدود المرآة إنما تنتهي عند سطحها الآن وهنا. أدرك بيقين أن المرآة تفتح على البحر، والبحر لا ينتهي، وجدتي هناك في مكان ما. ووطني أيضًا هناك في مكان ما، حيث لا يُسمح للعقل بالدخول. يمتزج الأفق بالزمن، الجغرافيا بالتاريخ، اللانهاية كبعد، واللانهاية كزمن. سطح المرآة يقف حارسًا حتى لا تمتد يداك فتلمسان ألمًا لا نهاية له.

t.me/qurssan

. إنتِ فين يا تيتة؟

. إنتِ كنتِ فين؟

. في الجبل.

. بتعملي إيه؟

. بادفس رجليَ في الرملة الساقعة.

. هنفطر إيه النهاردد؟

. أنا قاليالكم طعمية جميلة، وبيض، ومحوشالكم القشطة بتاعة اللبن كله.

. لا عايزين سد الحنك.

. طب أعملكم بيض؟

. سد الحنك.

. تعالوا يا ولاد عمو نبيل هيلعبنا لعبة البحث عن الكنز.

. حاسبوا يا ولاد الزرع تكسروه، أنا لسه زارعة شوالي جديدة.

t.me/qurssan

. الفرع ده بيتي أنا.

. والفرع اللي فوق ده بيتي أنا.

. لا أنا.

. يا عم شجرة الكافور كبيرة روح شوفلك فرع تاني!

. الحقي يا تيتة، رامي وحمادة بيضايقوا الكلب. وعمرو بيصطاد عصافير.

. فين الكحك يا تيتة؟

. مفيش كحك. لسه فاضل ع العيد خمس أيام.

. والنبي يا تيتة، طب هاتيلي كحكاية واحدة.

. طب هاقولك مكان الصفيحة بس ما تقوليش لحد: مخبياها في البوفيه ورا الأطباق الصيني.

. مين نازل معانا نعيِّد على أختي وبعدين أبلة روحية؟

. قبل ما تمشي ما تنسيش البطة اللي أنا جايباهالك، حاطاهالك في الفريزر.

. والكحل يا تيتة؟

. عاملالك حبة صغيرين وما لقيتش علبة حطيتهملك في مكحلتي النحاس بتاعة جهازي. خليها عندك.

. النهارده هندكر النخل تعالي صوَّري. تعرفي تطلعي النخلة كده؟ يلَّا جربي، إنتِ مش كنتِ بتتشعبطي ع التوتة والكافورة؟

. إنتِ ناكشة شعرك كده ليه؟

. يا تيتة حدوتة ست الحسن والجمال اللي كنتِ بتحكيهالي قُلتيلي شكلها كده.

. أنا قلت كده؟

t.me/qurssan

.أه وقُلتيلي الشاطر حسن هيحبني.

t.me/qurssan

حقوق الصور

الصور في الكتاب من تصويري، باستثناء صور الجدود وصورنا العائلية في الطفولة.

التشابه بين الصور والشخصيات والأماكن ليس محض خيال، وإن كنت تركت لكم مساحة التخمين والاكتشاف.

t.me/qurssan

شكرًا للقراءة والتشجيع

أحمد خليل، أكمل صفوت، إيمان السباعي، خالد الشامي، كارول منصور، ليلى القوني شعث، محمد رشاد، مريم صفوت، مصطفى صقر، وائل جمال.

وشكر خاص للدعم المستمر:

محمد فرج، نادية كامل، ياسر عبد اللطيف.

t.me/qurssan